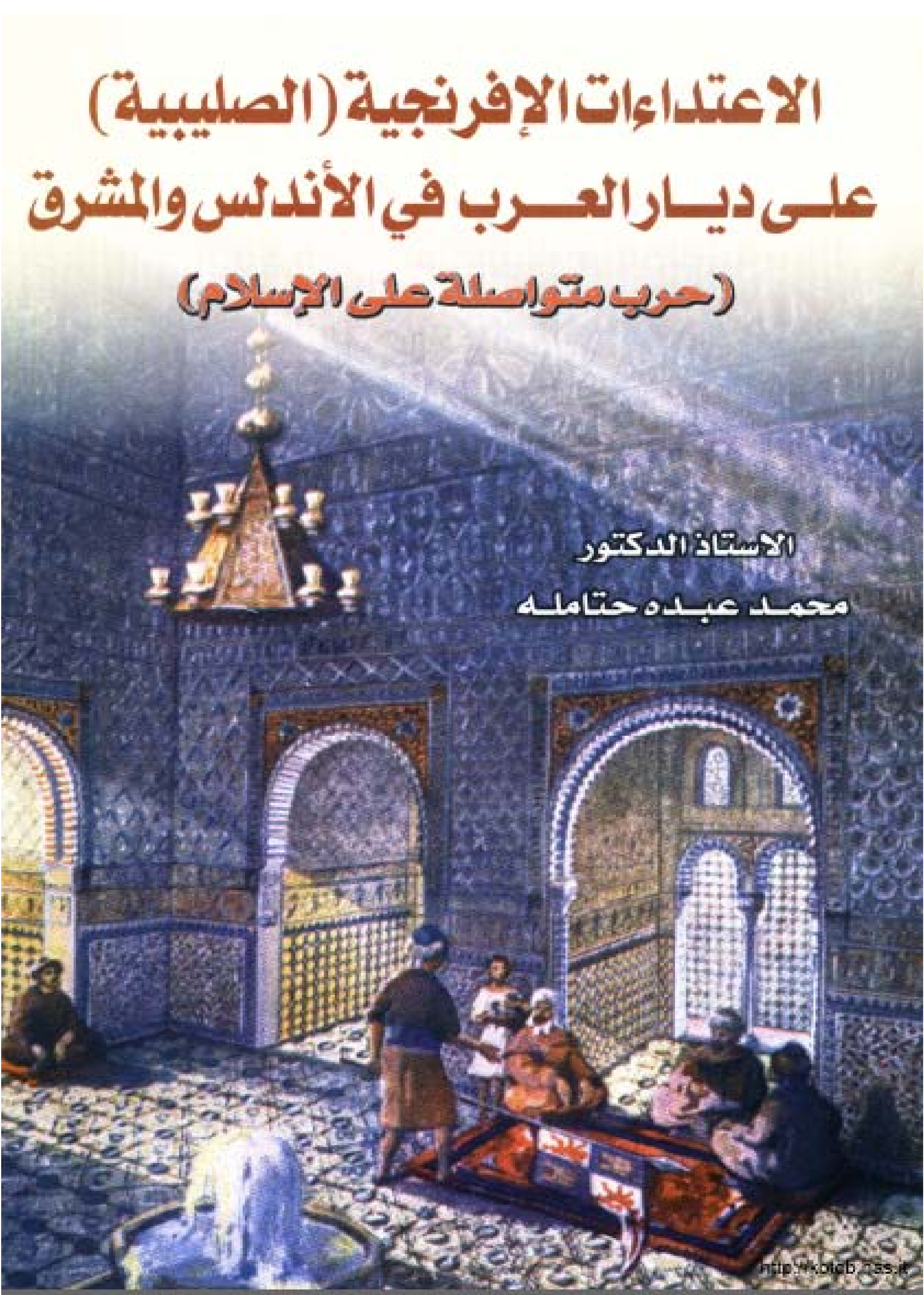


الاعتداءات الإفرنجية (الصليبية)
على ديار العرب في الأندلس والمشرق
(حرب متواصلة على الإسلام)
الاستاذ الدكتور
محمد عبده حتامله

الاعتداءات الإفرنجية (الصليبية) على ديـــار العـــرب في الأندلس

(حرب متواصلة على الإسلام)

The Crusade Against the Arabs in Spain (Andalus) and the East (a Continuos war against Islam)

الأستاذ الدكتور
محمـــد عبـــده حتاملـــه
قسم التاريخ / كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
الجامعة الأردنية / عمان

Prof. Dr.
Mohammed Abdo Hatamleh
University of Jordan
Department of History

عمان - الأردن
١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١م

Amman - Jordan
1422 A.H. / 2001 A.D.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾

صدق الله العظيم

آل عمران: ٢٦

المحتويات

الاعتداءات الإفرنجية (الصليبية) على ديار العرب
في الأندلس والمشرق
(حرب متواصلة على الإسلام)

ملخص

بادر الأباطرة والملوك في أنحاء أوروبا إلى تلبية النداءات الصليبية التي كان يطلقها البابوات المتعاقبون، اذ جيشوا الجيوش، ووجهوها لمساعدة نصارى قشتالة في القضاء على الإسلام والمسلمين في الأندلس وفي المشرق العربي. وكانت هذه الجيوش التي ارتكبت الكثير من الفظائع في حق المسلمين تستظل براية واحدة، هي راية الصليب، وقد تمكنت من تحقيق كثير من أهدافها وخاصة أن المسلمين ألقوا راية الجهاد، وانشغلوا عن دينهم بدنياهم.

وكانت بداية الهجمة الصليبية ضد الإسلام والمسلمين ذات طابع عسكري، إلا أن الصليبيين توسعوا في تنويع أسلحتهم، فأصبحت سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية. كما أنهم وسعوا ميدان المعركة ضد المسلمين فلم يقتصر ميدانها على الأندلس وبلاد الشام، وإنما امتد ليشمل المسلمين حيثما حلوا وأينما ارتحلوا.

وتستعرض هذه الدراسة باختصار شديد ما تعرضت له ديار العرب والمسلمين من حرب صليبية مستمرة طالت الأندلس وبلاد الشام والبوسنة والهرسك وغيرها، واستخدمت فيها وما تزال أنواع الأسلحة العسكرية والاقتصادية والثقافية، وأصبحت العولمة، والبنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية من أخطر هذه الأسلحة الصليبية التي يستخدمها الغرب الصليبي اليوم ضد الإسلام والمسلمين.

ولعل السلاح الأخطر، والأكثر فتكاً الذي استخدمه الصليبيون ضدنا هو هذا الخنجر المسموم الذي غرسوه في قلب بلادنا، وأعني به إسرائيل. ولن تقوم لأمة العرب من قائمة تحمد إلا باستئصاله.

محمد عبده حتاملة
قسم التاريخ كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
الجامعة الأردنية

The Crusade Against the Arabs in Spain (Andalus) and the East (a Continuos war against Islam)

Prof. Dr.
Mohammed Abdo Hatamleh
University of Jordan
Department of History

Abstract

The call for the Crusades declared by many popes found an enthusiastic response from Europian kings, princes and emperors, who lead their armies under the banner of the cros against muslims and commited unspoken atrocities.

At the beginning, the war against Islam was a military one, then the Crusades expanded their methods to include political, economic, social and cultural warfare.

They also enlarged the scope of their operation to include attacks on Muslims in Spain and other places.

This study deals briefly with the crusades against Arabs and Muslims starting with the first crusade and ending with the modern crusade against Muslims in the Balkan. In the modern crusades we see the west using every available means; Globalization, M.I.F; World Trade Organization, to direct them against Islam and the Muslims.

Israel could be considered the most compelling and dangerous weapon that Arabs and Muslims have faced and still facing today.

الاعتداءات الإفرنجية (الصليبية) على ديار العرب
في الأندلس والمشرق
(حرب متواصلة على الإسلام)

مقدمة:

تعرضت ديار العرب والإسلام، وما زالت تتعرض، لغزو صليبي، اتخذ أشكالاً متعددة ومر بمراحل متتابعة، متخذاً من الدين مبرراً لتحقيق أطماعه الاستيطانية التوسعية والإجهاز على كيان الأمة العربية والإسلامية وحضارتها، وقد شجع الصليبيين على تنفيذ حملاتهم العدوانية ما آلت إليه أمة الإسلام من تجزئة وتمزق، ففي الأندلس تمزقت دولة المسلمين إلى دويلات تجاوز عددها العشرين، كما شهدت بلاد المشرق الإسلامي صراعاً بين أمراء السلاجقة وأتباعهم حتى أصبحت كل مدينة من مدن الشام تقريباً تحت حكم أمير مستقل. وكان ضيق النظر وطغيان المصالح الشخصية مسيطراً على هؤلاء الأمراء.

لقـد شن القشتاليون هجمات صليبية متكررة ضد المسلمين في الأندلس، وتزامن بعضـها مع هجمات شنها الصليبيون على مشرق العالم الإسلامي، بل شاركت أكثر من حملـة صليبية متجهة إلى الشرق في احتلال المدن الإسلامية في الأندلس، وأدى ذلك كله إلى سقوط المدن الأندلسية تباعاً في أيدي القشتاليين، بدءاً بطليطلة وانتهاءً بغرناطة التي اضطر المسلمون إلى توقيع معاهدة مذلّة بتسليمها.

واستمرت الهجمات الصليبية ضد المسلمين في المشرق، حيث ارتكب الصليبيون من الفظائع في فلسطين وفي ساحات المسجد الأقصى بشكل خاص ما تقشعر له الأبدان.

واستمرت الحملات الصليبية بعد سقوط غرناطة، اذ عمل النصارى على إضعاف المسلمين في كل مكان، فقطعوا طرقهم التجارية بين الشرق الأقصى والغرب، واتفقوا على زرع إسرائيل في قلب العالم العربي المسلم، وعملوا على تفكيكه. وبعد انهيار الاتحاد السوفياتي قادوا حملة صليبية كبرى سموها عاصفة الصحراء، وأطلقوا من خلالها عاصفة اليورانيوم المنضب التي أخذت تأكل الأخضر واليابس في أجزاء شاسعة من بلاد العرب المسلمين، وستبقى آثارها المدمرة للحياة والأحياء عشرات السنين. وفرضوا على العرب المسلمين ممثلين في الفلسطينيين توقيع اتفاقيات أوسلو التي انتزعوا بموجبها أرض فلسطين المباركة وطناً أبدياً لليهود، وانتزعوا المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، وانتزعوا قدس الأقداس لتكون عاصمة أبدية لذلك الوطن الذي أرادوه يهودياً ليس حباً باليهود، وإنما تكريساً لفرقة الأمة، وإمعاناً في إضعافها.

وقد كانت الحروب الصليبية تشكل غزواً شاملاً للبلاد العربية الإسلامية في المشرق والمغرب، واقترن غزوهم بتعصب ديني أدى إلى ارتكاب الصليبيين لكثير من الفظائع الوحشية والمجازر البشرية.

ويمكننا تحديد الإطار الزمني لهذه الحروب بأنها بدأت في الأندلس قبل أن تبدأ في المشرق الإسلامي وذلك منذ سقوط طليطلة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م في يد جموع الصليبيين الذين تجمعوا من العديد من الأقطار الأوروبية لمساعدة القشتاليين في حربهم ضد المسلمين. واستمرت هذه الحروب بأشكال مختلفة في مراحل التاريخ اللاحقة، وتمثلت في الحملات الصليبية التي استهدفت فلسطين وسائر بلاد الشام وعددها أربع وهي الأولى والثانية والثالثة والسادسة، وفي تلك التي الحملتين اللتين استهدفتا مصر باعتبارها مركز الثقل الإسلامي وهما الحملتان الخامسة والسابعة، ثم الحملة الثامنة التي استهدفت تونس. واستمرت تلك الحروب من خلال الصراع بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية منذ القرن الرابع عشر حتى سقوط الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى. يضاف إلى ذلك الحملات الصليبية في الأندلس والمغرب العربي التي استمرت حتى بعد سقوط غرناطة مروراً بالاحتلال الأوروبي لأقطار المغرب العربي في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

وتحاول هذه الدراسة رسم الملامح العامة للدولة العربية الإسلامية بعد تفككها، ورصد الهجمات الصليبية ضد المسلمين في الأندلس وفي المشرق، وتحليل معاهدات التسليم واتفاقيات الاستسلام التي اضطر العرب المسلمون إلى توقيعها مع أعدائهم، والدروس التي يجب أن نتعلمها من الماضي، والعبر التي يجب أن نأخذها من أجل حاضر أفضل، ومستقبل نستعيد فيه زمام المبادرة، ونمضي معتصمين بحبل الله جميعاً لا تفرقنا دسائس النصارى ومكائدهم حتى يظهر دين الله على الدين كله.

كانت شبه الجزيرة الأيبيرية (Peninsula Espanica I Lberica) الواقعة في أقصى الطرف الجنوبي الغربي من قارة أوروبا قد خضعت قبل مجيء المسلمين إليها لشعوب كثيرة، فقد تعاقب عليها الفينيقيون والإغريق والقرطاجيون والرومان والوندال (Vandalos) والآلان (Alanos) والسويف (Suevos) والقوط الغربيون[1].

وكانت المنازعات الدينية والخلافات الكثيرة بين الأمراء من القوط الغربيين تعصف بشبه الجزيرة، ثم انشقت البلاد على نفسها بين رجال الدين والنبلاء[2]، ولم ينقذها من هذا التخبط سوى المسلمين الذين بادروا إلى فتحها على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بن مروان (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٣م)[3].

بدأ فتح شبه الجزيرة الأيبيرية التي سماها المسلمون الأندلس سنة ٩٢هـ/٧١١م[4]، وتعاقب عليها بعد الفتح نحو عشرين والياً وتلك خلال الفترة ٩٥-١٣٨هـ/٧١٤-٧٥٦م[5]، وفي عهد هؤلاء الولاة عقدت أول معاهدة صلح بين المسلمين في الأندلس والنصارى، وتم توقيعها من الجانبين في رجب سنة ٩٤هـ/٧١٣م بين عبد العزيز بن موسى بن نصير وتدمير بن عبدوس حاكم ولاية تدمير التي تسمى باسمها، وقد نصت هذه المعاهدة على أن لتدمير "عهد الله وميثاقه، وما بعث به أنبياءه ورسله، وأن له ذمة الله عز وجل، وذمة محمد صلى الله عليه وسلم ألا يقدم له ولا يؤخر لأحد من أصحابه بسوء،

---

(1) حتاملة، أيبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، ص٢٦-٢٧.

(2) مؤنس، فجر الأندلس، ص١٢-١٧؛ حتاملة، موسوعة الديار الأندلسية: ج١، ص١٤٨-١٤٩

(3) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص٤٥، ٤٨؛ الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص٤٨-٤٩؛ مؤنس، فجر الأندلس، ص٦٦؛ حتاملة، موسوعة الديار الأندلسية، ج١، ص١٥١-١٥٢.

(4) الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص٨-٩؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص٤٥؛ حتاملة، الموسوعة: ج١، ص١٥١.

(5) حتاملة، الموسوعة: ج١، ص١٥٣-١٥٤.

وأن لا يسبون ولا يفرق بينهم وبين نسائهم وأولادهم، ولا يقتلون، ولا تحرق كنائسهم، ولا يكرهون على دينهم..."[6].

وبموجب هذا الصلح الذي وفى به المسلمون كعادتهم، وبموجب غيره من العهود التي أعطاها المسلمون أثناء فوتهم للنصارى، وانفردوا عن غيرهم من الأمم بالحرص على الوفاء بها، وعدم نقضها حتى في الظروف الحالكة، بموجب هذه العهود ساد الإسلام، وترسخ في كل مكان وصل إليه المسلمون.

لقد فتح المسلمون معظم أنحاء شبه الجزيرة الأيبيرية خلال فترة وجيزة، وتجاوزوها إلى جنوبي فرنسا، ولم يتوقفوا إلا قرب بلدة سانس (Sens) على بعد ثلاثين كيلومتراً جنوب باريس. واجتازت قواتهم نهر اللوار، وشارفوا على ضفاف نهر السين، وذلك خلال سنتي ١١٢ و ١١٣هـ/٧٣٠ و ٧٣١م[7].

ويؤكد بعض المؤرخين الأوروبيين أن العرب المسلمين وصلوا في فتوحاتهم إلى فرنسا وشمالي إيطاليا، وقطعوا الطريق بين فرنسا وإيطاليا حتى أن أسقف تربونة لم يتمكن سنة ٢٩٩هـ/٩١١م من العودة إلى بلاده عندما استدعاه البابا انسطيوس الثالث لأمر مهم، لأن المسلمين كانوا يسيطرون على ممرات الألب، بل وصلوا إلى بحيرة (جنيف) (بحيرة ليمان) وما يحيط بها من جبال. وفي سنة ٣٢٩هـ/٩٤٠م وصل المسلمون إلى ميناء طولون، وفتحوا منطقة نيس، ثم منطقة جرينوبل وسهلها الخصيب حيث أقاموا قلاعاً حصينة كانوا ينطلقون منها لنشر الإسلام في المناطق المجاورة. وتمكنوا في سنة ٣٤١هـ/٩٥٢م من فتح سويسرا ووصلوا إلى بحيرة كونستانس، غير أنهم تعرضوا في منطقة البحيرة لهجوم صليبي معاكس ومباغت مما اضطرهم إلى تركها[8].

---

[6] العذري، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار، ص٤-٥؛ الحميري، الروض المعطار، ص١٣٢؛ مؤنس، فجر الأندلس، ص١١٤-١١٥.

[7] مؤنس، فجر الأندلس، ص٢٤٧.

[8] راجع كتاب المؤرخ الفرنسي رينو (غزو العرب لفرنسا وشمال إيطاليا وسويسرة).

وهكذا وصلت رايات الإسلام إلى قلب أوروبا الغربية، وهبت رياح الإسلام على النصرانية من كل ناحية، وتوغلت في الريفيرا الإيطالية، وكان كثيرون من النصارى في جنوبي فرنسا يرحبون بالمسلمين الفاتحين، ويفضلونهم على بعض القادة من أبناء ملتهم القساة البعيدين عن كل تمدن وخاصة أن المسلمين لم تكن أيديهم تمتد بالأذى إلى أموال الناس فيما يدخلونه من البلاد الا بقدر ما تضطرهم إليه الضرورات العسكرية، كما كانوا ينصفون الناس في الأندلس، ولا يكادون يؤذون رجال الدين أو المؤسسات الدينية النصرانية[٩].

وتمكن الإسلام في الأندلس بما عرف عن المسلمين من تسامح، وأنشئت هناك دولة إسلامية بلغت أوج قوتها في عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) الذي هابه ملوك قشتالة، وبلغت الأندلس في عهده ذروة التقدم والرقي[١٠]. ووفدت على بلاطه رسائل الأباطرة والملوك، "وهادنته الروم، وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية"[١١].

وبدأ انهيار الدولة الإسلامية في الأندلس بعد وفاة الناصر، وصار ملك البلاد في طوائف من الموالي والوزراء والكبار من العرب وغيرهم، وقام كل واحد منهم بأمر ناحية منها، وتغلب بعضهم على بعض[١٢]. وزاد عدد الممالك والدويلات التي أقامها ملوك الطوائف الذين يسميهم ابن عذاري (ملوك الفتنة)[١٣] على اثنتين وعشرين دولة،

---

[٩] مؤنس، فجر الأندلس، ص٢٨٤-٢٨٥.

[١٠] ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج٢، ص١٥٦-١٥٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص١٤٣؛ المقري، نفح الطيب ج١، ص٣٥٣؛ حتاملة، الأندلس، ص٣١٦ وما بعدها.

[١١] المقري، نفح الطيب، ج١، ص٣٦٦.

[١٢] ابن خلدون، تاريخه، ج٤، ص٢٠٠؛ المقري، نفح الطيب، ج١، ص٤٣٨.

[١٣] ابن عذاري، البيان المغرب، ج٣، ص١٨٧. وأهم الممالك والدويلات التي أقامها ملوك الفتنة في الأندلس: مملكة سرقسطة (Zaragoza)، ومملكة طليطلة (Toledo)، ومملكة إشبيلية (Sevilla) وغيرها. انظر: حتاملة، الموسوعة، ج١، ص١٥٨.

وهو عدد مساوٍ لعدد الدول العربية اليوم، هذه الدول التي انقسمت إليها الأمة العربية الإسلامية في المشرق بفعل الاستعمار الإيطالي والفرنسي والإنجليزي وغيره، كما سيأتي.

وتعرضت الأندلس بسبب التفكك والاضطراب لأطماع الإسبان، إذ كانوا المستفيدين الوحيدين من الفوضى العارمة التي أعقبت انهيار الخلافة الأموية هناك سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م[١٤]، وأخذوا يشنون الهجمات المحدودة عوناً لمن يطلب عونهم من ملوك الفتنة ضد بعضهم، وهو الأمر الذي نشهد مثله اليوم، فبعض الدول العربية استعانت بالولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من دول الغرب النصرانية ضد دول عربية أخرى، وكان الغرب النصراني هو المستفيد الوحيد من ذلك حيث تمكن من ضرب الدولة العربية المرشحة للنهوض والتطور (العراق) فأضعفها، واستحوذ في الوقت نفسه على مقدرات الأمة العربية وعلى خيراتها، وأمعن في تفكيكها ودق الأسافين بينها.

لقد كان ملوك الفتنة في الأندلس يتنازلون لأعداء الأمة من الإسبان عن القلاع والحصون، ويقدمون لهم الهدايا، ويدفعون لهم الجزية، كل ذلك من أجل عونهم ضد بعضهم بعضاً. وزاد ذلك من طمع ملوك الإسبان في بلاد المسلمين، اذ توسعوا في اعتداءاتهم، وقوضوا الخطوط الدفاعية للأندلس ولخترقوها، وأهلكوا الزرع والضرع في الثغور، ثم اجتاحوا البلاد، ونكلوا بأهلها المسلمين تنكيلاً.

وارتكب الغرب – الذي أصبحنا اليوم نركن إليه ونواليه ونستجدي نصرة قضايانا منه – فظائع كثيرة في المسلمين، ويرتكب الغربيون اليوم، خاصة الولايات المتحدة الأمريكية، فظائع أشد في أهلنا الفلسطينيين على يد ربيبتهم إسرائيل.

---

[١٤] ابن عذاري، البيان المغرب، ج٣، ص١٤٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٧، ص٢٩٠.

الهجمات الصليبية في الأندلس:

كان أول من استعمل مصطلح (الحرب الصليبية) أو (الحملة الصليبية) هو المؤرخ الفرنسي لويس ممبور في عهد الملك لويس الرابع عشر، فقد ألف كتاباً سنة ١٦٧٥م سماه (تاريخ الحروب الصليبية)[١٥]. وقد سميت الحروب الصليبية بهذا الاسم لأن الذين اشتركوا فيها كانوا حين يتجهزون لمحاربة المسلمين يخيطون على ألبستهم علامة الصليب من قماش أحمر رمزاً للدوافع والأهداف والنوايا الدينية[١٦]. فالهدف المعلن – إن في الحروب الصليبية ضد المسلمين في الأندلس أو في المشرق – كان دينياً، وهذا الهدف هو نفسه الذي لم يعد يعلنه الصليبيون في حروبهم المستمرة ضد المسلمين حتى اليوم.

وقد بدأت الحروب الصليبية في الأندلس عندما تمزقت وضعفت في عهد ملوك الفتنة، اذ استغلت الكنيسة هذا الوضع، وأخذت تحشد الفرسان من أنحاء أوروبا وتوجههم إلى الأندلس محيطة إياهم بهالة من الاستشهاد من أجل الدين والإيمان[١٧]. وأعلن البابا الكسندر الثاني (١٠٦١–١٠٧٣م) أن الكنيسة تغفر خطايا كل من يذهب لقتال المسلمين في إسبانيا، كما أعلن الحروب ضدهم هناك حروباً مقدسة[١٨]. وفي ظل هذا الجو المشحون بالتعصب الديني الأعمى انطلقت أول هجمة صليبية لاحتلال مدينة بربشتر Barbastro[١٩] إحدى مدن مملكة سرقسطة. وكانت هذه الهجمة بقيادة قائد فرسان البابا الكسندر الثاني واسمه جيوم دي مونتري (Guillaume de Montereuil) الذي هاجم المدينة في سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م بمشاركة قوات نصرانية من النورمان والفرنسيين والإيطاليين والأرغونيين والقطلونيين وغيرهم، وبعد دخولهم المدينة قتلوا رجالها كافة، وسبوا

---

[١٥] زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص١٤.

[١٦] المرجع نفسه، ص١٣.

[١٧] المرجع نفسه، ص٢٥.

[١٨] المرجع نفسه، ص٢٦.

[١٩] تقع بربشتر على بعد ستين كيلومتراً شمال سرقسطة على أحد فروع نهر الإبرو (Ebro) في شرقي الأندلس. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص٣٧٠؛ العذري، نصوص عن الأندلس، ص١٥٤؛ حتاملة، الموسوعة، ج٦، ص٢١٤ وما بعدها.

نسائها[20]. وكان الجنود الصليبيون بعد استيلائهم على المدينة "يفتضون البكر بحضرة أبيها، والثيب بعين زوجها وأهلها"[21]، وغير ذلك من أفعال يندى لها جبين الإنسانية[22].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الفظائع التي ارتكبها الصليبيون في بربشتر ارتكب اليهود الذين زرع لهم الصليبيون وطناً في بلادنا فظائع أشد هولاً منها، ففي نيسان من عام ١٩٤٨م هاجم الإرهابيون الصهاينة من الهاغاناه وشتيرن والبالماخ قرية دير ياسين، وقتلوا في أحد بيوتها أربعة وعشرين شخصاً، وذبحوا في بيت آخر ولداً على ركبة أمه، وقتلوا بالرصاص أسرة من أحد عشر شخصاً بينهم امرأة في الثمانين وطفل في الثالثة. وكانوا يبقرون بطون النساء، ويقطعون الأيدي أو الأصابع لانتزاع الحلي. كل ذلك فعلوه بدم بارد، ووحشية تتكرر حيناً بعد حين[23].

ولا بد من التنويه في هذا المجال بما يتحلى به المسلمون من رحمة وتسامح حتى مع أعدائهم، فعندما استرجعوا بربشتر في جمادى الأولى من سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٥م[24] تناسوا جراحهم القديمة، واكتفوا بقتل المحاربين من النصارى، وأخذ خيلهم وأسلحتهم[25].

واستهدفت الهجمة الصليبية الثانية ضد المسلمين في الأندلس مدينة طليطلة (Toledo)[26]، فبينما كان ألفونسو السادس (١٠٦٥-١١٠٩م) يتطلع إلى احتلالها كان آلاف الصليبيين يتجمعون في المحيط الأطلسي قبالة لشبونة، وقد قدموا من ألمانيا

---

[20] البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا، ص٩٤.

[21] المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٤٥٠.

[22] انظر التفاصيل: ابن عذاري، البيان المغرب، ج٣، ص٢٢٥-٢٢٦؛ الحميري، الروض المعطار، ص٩٠؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص٦٩-٧٥.

[23] مايكل، د.ب، الأسرار المذهلة للكارثة الفلسطينية، ص٧٢-٧٤.

[24] ابن عذاري، البيان المغرب، ج٣، ص٢٢٧؛ المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٤٥٤؛ الحميري، الروض المعطار، ص٩١.

[25] الحميري، الروض المعطار، ص٩١؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج٣، ص٢٢٧.

[26] تقع مدينة طليطلة وسط شبه جزيرة أيبيريا على بعد ستين ميلاً إلى الجنوب الغربي من مدريد. انظر: الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٥، ص٥٣٦؛ حتاملة، الموسوعة، ج٢، ص٦٩٠.

والأراضي المنخفضة (بلجيكا وهولندا ولوكسمبرغ)، ومن إيطاليا وفرنسا وإيرلندا وإنجلترا، وأخذوا يبحثون عن معبر إلى البحر الأبيض المتوسط في طريقهم إلى الشرق لمحاربة المسلمين هناك، حيث كان المسلمون يسيطرون على مضيق جبل طارق، المعبر البحري الوحيد المعروف آنذاك إلى البحر الأبيض المتوسط. ولما علم ألفونسو السادس بوجودهم هرع إليهم، وألقى فيهم خطبة حماسية محرضاً إياهم على محاربة المسلمين في الأندلس بدلاً من الانتظار الطويل الذي قد لا ينتهي من أجل إيجاد طريق بديلة توصلهم إلى هدفهم في المشرق الإسلامي.

واستطاع ألفونسو السادس أن يؤثر على الصليبيين المتجمعين في المحيط الأطلسي، فسارعوا إلى المشاركة في حملته ضد طليطلة بحماس، وقد بارك البابا كليمنت الثالث (١٠٨٠-١١٠٠م) جهودهم، فانقضوا على طليطلة بقيادة ملك قشتالة ألفونسو السادس[٢٧]، وتمكنوا من احتلالها في المحرم من سنة ٤٧٨هـ/ أيار ١٠٨٥م. وكانوا قبل دخولها قد أعطوا لأهلها الأمان بضمان حرياتهم واحترام شعائرهم الدينية وحقوقهم وحرمة مساجدهم، ولكنهم بعد شهرين فقط نقضوا هذه العهود، وحولوا مسجد المدينة الجامع إلى كنيسة[٢٨].

وتوجه الصليبيون بعد احتلال طليطلة عام ٤٧٨هـ/١٠٨٥م إلى الثغر الأعلى، وحاصروا سرقسطة[٢٩] بقيادة ملك قشتالة ألفونسو السادس، بينما وجه المسلمون – خاصة المعتمد بن عباد استغاثة عاجلة إلى أمير المرابطين يوسف بن تاشفين الذي جيش الجيوش، وعبر إلى الأندلس، واشتبك مع النصارى في معركة الزلاقة في الثاني عشر من رمضان سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م[٣٠]. وانتصر عليهم انتصاراً مؤزراً، غير أنه لم يتمكن من استرجاع طليطلة.

---

[٢٧] زابوروف، الصليبيون، ص ٢٤.

[٢٨] المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٤٤٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص١٣٨؛ ابن الكرديوس، تاريخ الأندلس، ص٨٥؛ حتاملة، الموسوعة، ج٢، ص٧٠٣.

[٢٩] تقع سرقسطة في شمال شرق الأندلس. انظر: حتاملة، الموسوعة، ج١، ص٥٠٣.

[٣٠] المراكشي، المعجب، ص١٧٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص١١٦ وما بعدها.

واستعاد الصليبيون الذين كانوا قد قدموا من المحيط الأطلسي قوتهم، ونظموا صفوفهم بعد معركة الزلاقة، وعاودوا محاصرة سرقسطة بقيادة ملك أرغون ألفونسو الأول المحارب (١١٠٤-١١٣٤م)، وبعد أن أنهكوا قوى المدينة تمكنوا من اقتحامها في سنة ٥١٢هـ/١١١٨م[٣١].

وباحتلالهم سرقسطة عاصمة الثغر الأعلى أمن الصليبيون طريقاً برية لهم إلى الشرق من لشبونة إلى طليطلة إلى سرقسطة، ومن ثم إلى برشلونة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وبذلك تجنبوا مخاطر عبور منفذ يسيطر عليه المسلمون، وهو مضيق جبل طارق.

وتجدر الإشارة إلى أنه بعد وقوع طليطلة في قبضة النصارى تشكلت في فرنسا عام ٤٨٠هـ/١٠٨٧م وحدات إقطاعية قوية برئاسة دوق بورغونيا هوغ (Hugues) الأول، وكونت تولوز ريمون دي سانجيل الذي شارك في الحملة الصليبية الأولى على المشرق الإسلامي. واشترك في هذه الوحدات الإقطاعية أيضاً فيكونت ميلون، غيلوم شاربانتيه الذي قاد فيما بعد حملة صليبية استهدفت احتلال القدس[٣٢].

وتعرضت إفراغه (Fraga)[٣٣] سنة ٥٢٨هـ/١١٣٤م لهجمة صليبية بقيادة ملك أرغون ألفونسو الأول (المحارب) (٤٨٧-٥٢٨هـ/١٠٩٤-١١٣٤م)، وبمشاركة عدد كبير من الفرسان الفرنسيين، فقد فرض عليها النصارى حصاراً مشدداً، وأقسموا على احتلالها أو الموت دون ذلك، غير أن القائد المرابطي يحيى بن غانية تمكن من إلحاق الهزيمة بهم، ودحرهم وذلك في ٢٣ رمضان ٥٢٨هـ/ ١٧ تموز ١١٣٤م[٣٤].

---

[٣١] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص١١٧-١٢٠؛ الحميري، الروض المعطار، ص٩٧-٩٨؛ الناصري، الاستقصا، ج٢، ص٦٦-٦٧.

[٣٢] زابوروف، الصليبيون، ص٢٤.

[٣٣] مدينة قديمة تبعد عن مدينة لاردة (Lerida) إلى الجنوب الغربي نحو ثمانية عشر ميلاً. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص٢٢٧؛ الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص٢٤؛ حتاملة، الموسوعة، ج ١، ص٩٩ وما بعدها.

[٣٤] الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص٢٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٩١-٩٢؛ حتاملة، الموسوعة، ج١، ص١٠٢.

وكانت مساهمة الصليبيين المتجهين إلى الشرق ملحوظة في حروب النصارى ضد مسلمي الأندلس، ففي سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م هاجم النصارى بقيادة ألفونسو هنريكيز، ملك البرتغال، مدينة لشبونة (Lisbona)[٣٥]، وقد استعصت عليه أول الأمر، ولكن الحظ ساعده بمرور أسطول صليبي كان متوجهاً نحو الشرق، فعند وصول الصليبيين إلى ميناء البرتغال (أبورتو) للتزود بالمؤن، طلب منهم أسقف لشبونة مساعدة ألفونسو في احتلال المدينة، وانتزاعها من أيدي المسلمين. وقد استخدم الإنجليز المشتركون في هذه الحملة الصليبية مقاليعهم، فتمكنوا من إبعاد المسلمين عن ربض المدينة الغربي إلى داخل الأسوار، وحاولوا نقبها واختراقها إلا أنهم فشلوا، فلجأ الإنجليز إلى طريقة أخرى لاقتحام المدينة، إذ بنوا برجاً خشبياً عالياً، وأدنوه من السور مما مكنهم من التغلب على المدافعين المسلمين، وأعقب ذلك دخول النصارى إلى المدينة في ٢٧ جمادى الأولى من سنة ٥٤٢ هـ/٢٤ تشرين الأول ١١٤٧م[٣٦].

وازدادت الروح الصليبية توهجاً لدى ملوك النصارى الذين ازداد تربصهم بمسلمي الأندلس، وبالدويلات الإسلامية الضعيفة هناك، وأخذ بعض أولئك الملوك يعقدون المؤتمرات، ويحشدون الصليبيين من كل حدب وصوب، ويرسمون الخطط للانقضاض على المسلمين، فبعد تمكن ملك قشتالة ألفونسو الثامن (٥٥٣-٦١١هـ/١١٥٨-١٢١٤م) من احتلال مدينة قونكة (Cuenca)[٣٧] في ربيع الثاني من سنة ٥٧٣هـ/أيلول ١١٧٧م[٣٨]، دعا إلى عقد مؤتمر في المدينة لتوحيد الجهود وحشد الحشود ضد المسلمين. وقد حضر ذلك المؤتمر إلى جانب ملك قشتالة ألفونسو الثامن ملك أرغون ألفونسو الثاني

---

[٣٥] تقع مدينة لشبونة عند مصب نهر تاجه (Tajo) في المحيط الأطلسي، وهي اليوم عاصمة البرتغال. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص١٦؛ ابن سعيد، المغرب، ج١، ص١١؛ الحميري، الروض المعطار، ص٦١؛ حتاملة، الموسوعة، ج٢، ص٩٤١ وما بعدها.

[٣٦] الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٤٦٠-٤٦١؛ الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ص٢٣٨-٢٤٠؛ حتاملة، الموسوعة، ج٢، ص٩٤٧.

[٣٧] تقع مدينة قونكة على بعد ثلاثمائة واثنين وعشرين كيلومتراً إلى الشمال الغربي من مدينة بلنسية (Valencia). انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٤١٥؛ الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص١٩٤؛ حتاملة، الموسوعة، ج٢، ص٩٠٤ وما بعدها.

[٣٨] حتاملة، الموسوعة، ج٢، ص٩١١.

(٥٥٨-٥٩٣هـ/١١٦٢-١١٩٦م)، كما حضره مندوبون عن مختلف الممالك النصرانية في أيبيريا وغيرها من مناطق أوروبا. وصرخ ألفونسو الثامن في ذلك المؤتمر قائلاً: كلنا صليبيون[٣٩]، معلناً الحرب على المسلمين[٤٠].

وتجلت الروح الصليبية، والاستجابة الواسعة لصرخة ملك قشتالة ألفونسو الثامن أثناء حصار ملك البرتغال سانشو الأول (Sancho I) لمدينة شلب (Silves)[٤١] سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م[٤٢]. فقد تحمس سانشو لاحتلال المدن الإسلامية موطداً العزم على حشد الطاقات الصليبية لهذه الغاية، وفي أثناء حصاره للمدينة حلت بسواحل البرتغال حملة صليبية متجهة إلى الشرق، وقدمت له آلاف المقاتلين الذين تمكنوا من حفر السراديب تحت أسوار المدينة، وقطع المياه عنها، ولما ضاق أهلها المسلمون بالحصار عرضوا تسليم المدينة على أن يخرجوا منها سالمين في أنفسهم، غير أن حلفاءه الصليبيين رفضوا الصلح، وطالبوا بقتل المسلمين جميعاً[٤٣].

وتكررت الهجمات الصليبية على مدن الأندلس في عهد ملك قشتالة ألفونسو الثامن الذي ألجأه المسلمون إلى شلبطرة (Salvatierra)[٤٤] حيث تحصن بها، وأخذ يشن الغارات على الأراضي الإسلامية بمعاونة ملك أرغون ألفونسو الثاني، والممالك النصرانية الأخرى.

---

(٣٩) أبو رميله، علاقات الموحدين، ص٢٥٠.

(٤٠) الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص١٣٧-١٣٨؛ الناصري، الاستقصا، ج٢، ص٢٢٠.

(٤١) تقع مدينة شلب في غربي الأندلس على بعد ثلاثة أميال عن المحيط الأطلسي. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص٣٥٧؛ الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص١٠٦؛ حتاملة، الموسوعة، ج١، ص٥٦٢ وما بعدها.

(٤٢) الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص١٠٦؛ الناصري، الاستقصا، ج٢، ص١٨٤.

(٤٣) الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص١٠٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩، ص٢١١؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٤٦٢-٤٦٣؛ حتاملة، الموسوعة، ج١، ص٥٦٩.

(٤٤) حصن يقع على قمة جبل في أقصى الحدود الجنوبية لمملكة قشتالة. انظر: الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص١٠٨؛ الناصري، الاستقصا، ج٢، ص٢٢١؛ حتاملة، الموسوعة، ج١، ص٥٧١ وما بعدها.

وقد أحرز المسلمون انتصاراً باهراً على القشتاليين في معركة الأرك (Alarcos)[٤٥] التي جرت يوم الخميس التاسع من شعبان سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م بين المسلمين بقيادة أبي يوسف يعقوب المنصور والنصارى بقيادة ألفونسو الثامن الملقب بالنبيل الذي نقض الهدنة التي كانت بينه وبين المسلمين وشرع في تحدي المسلمين. وكانت عاقبة هذه المعركة على النصارى وخيمة إذ قتل وأسر منهم خلق كثير وفر ألفونسو الثامن إلى طليطلة في أسوأ حال، فحلق رأسه ولحيته وحلف أن لا يركب فرساً ولا بغلاً ولا ينام على فراش ولا يقرب النساء حتى تنتصر النصرانية[٤٦].

وأخذ ألفونسو الثامن بعد هزيمته في الأرك يسعى إلى إذكاء الروح الصليبية عند النصارى في داخل إسبانيا وخارجها، وقد استجاب لندائه بيدرو الثاني (Pedro II) ملك أراغون، كما استجاب له سائر ملوك إسبانيا النصارى وعدد من الملوك الأوروبيين والبابا إنوسنت الثالث الذي كان شديد التعصب ومتحلياً بالروح الصليبية، فقد حث جميع الأساقفة والرهبان والقساوسة على أن يعظوا رعاياهم بأن يمدوا يد العون والمساعدة بأموالهم وأنفسهم لنصرة ألفونسو الثامن، كما وعد البابا كل من يساهم في هذه الحملة بالغفران[٤٧]. فاستجاب له النصارى قريبهم وبعيدهم وجاءوا إليه من كل حدب وصوب للمشاركة في حرب المسلمين، وخاضوا ضدهم معارك وحروباً طاحنة.

أ. معركة العقاب:

تجمعت لدى ألفونسو الثامن – نتيجة الدعوة الصليبية – قوات من أنحاء أوروبا قدرتها بعض المراجع بمائة ألف مقاتل، والتقت مع المسلمين في سهل يقع قرب حصن العقاب يوم الاثنين الخامس عشر من صفر سنة ٦٠٩هـ/ ١٦ تموز ١٢١٢م، وانتصرت عليهم، مما اضطر الخليفة الموحدي أبا عبد الله محمد الناصر (٥٩٥-٦١٠هـ/١١٩٩-

---

[٤٥] سميت معركة الأرك بهذا الاسم لوقوعها قرب حصن الأرك. انظر: حتاملة، الموسوعة، ج١، ص ٤٢-٤٩.

[٤٦] المقري، نفح الطيب، ج١، ص٤٤٣؛ الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج٢، ص ١٨٥-١٩٣.

[٤٧] الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٤٩١؛ حتاملة، الموسوعة، ج٢، ص٧١٠.

١٢١٣م)، قائد المسلمين في تلك المعركة إلى الانسحاب، ومن ثم عاد إلى المغرب، وتوفي هناك في مدينة سلا ليلة الثلاثاء عاشر شعبان سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م[٤٨].

ب. معركة مرج غرناطة:

ومن المعارك ذات الطابع الصليبي التي خاضها النصارى ضد المسلمين في الأندلس تلك المعركة التي وقعت في المرج الواقع بظاهر غرناطة سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م، فقد خاض تلك المعركة من النصارى جيش قشتالي بقيادة دون بيدرو ودون خوان الوصيين على الملك ألفونسو الحادي عشر (١٣١٢-١٣٥٠م)، واشترك معهما جنود من عدد من الأقطار الأوروبية، وخصوصاً من الإنجليز. ويذكر المقري أن دون بيدرو (Don Pedro) ألب ملوك النصارى، وما إن جاءت سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م حتى تجمع لديه جيش لا يحصى، فتوجه بهم إلى غرناطة ومعه خمسة وعشرون ملكاً تؤيدهم الكنيسة بقصد استئصال المسلمين[٤٩]. غير أن المعركة انتهت بهزيمة النصارى ومقتل قائدهم دون بيدرو وبعض ملوك النصارى الذين دعموه[٥٠].

وفي موقعة مرج غرناطة تجلت قدرة الله الذي وعد المؤمنين الذين يصدقون النية في الجهاد بالنصر، اذ نصر المؤمنون وهم قلة لا يتجاوز عددهم ستة آلاف بقيادة ملك غرناطة إسماعيل أبي الوليد بن فرج بن إسماعيل بن يوسف (٧١٣-٧٢٥هـ/١٣١٤-١٣٢٥م)، لأنهم أخلصوا النية، ولجأوا إلى الله تعالى فنصرهم، ومكنهم من قتل خمسين

---

[٤٨] للمزيد عن معركة العقاب انظر: الناصري، الاستقصا، ص١٩٢ وما بعدها؛ الحميري، الروض المعطار، ص٤١٦؛ المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٣٨٣؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٣٤٢؛ حتاملة، الموسوعة، ج٢، ص٧٠٩ وما بعدها.

[٤٩] المقري، نفح الطيب، ج١، ص٤٤٩-٤٥١؛ وانظر: الناصري، الاستقصا، ج٣، ص١٠٨-١٠٩؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص٣٨٩؛ عنان، نهاية الأندلس، ص١١٨، ١٧١.

[٥٠] المقري، نفح الطيب، ج١، ص٤٥٠.

ألفاً من النصارى المهاجمين الذين ولت بقيتهم الأدبار، وهلك كثيرون منهم وهم يتدافعون هرباً، حيث سقطوا في نهر شنيل (Rio Genil)[٥١]، بينما كان المسلمون يكتسحونهم[٥٢].

ج. معركة (Salado):

وازدادت الهجمة الصليبية ضد المسلمين في الأندلس ضراوة بعد معركة مرج غرناطة، وأصبحت تلبية النصارى لنداء الصليب الذي كان البابا نفسه يطلقه غالباً أكثر سرعة، ذلك أن البابا كان هو المحرك للحرب الدينية الضروس ضد الإسلام وحضارة الإسلام. ومما يؤكد ذلك كله تلك الهجمة الصليبية التي وقعت في عهد ملك غرناطة يوسف الأول أبي الحجاج بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل (٧٣٣-٧٥٥هـ/١٣٣٣-١٣٥٤م)، حيث أرسل ألفونسو الحادي عشر، ملك قشتالة وليون، أسطولا لاعتراض المسلمين في مضيق جبل طارق وقطع الإمدادات عنهم. وانضم إليه في هذه الحملة ملك إنجلترا إدوارد الثالث (١٣٢٧-١٣٧٧م)، وملك البرتغال ألفونسو الرابع (١٣٢٥-١٣٨٧م) بتأييد البابا كلمنت السادس (١٣٤٢-١٣٥٢م). واشتبكت جيوش النصارى مع جيش المسلمين في معركة (Salado) التي انتهت بهزيمة المسلمين، واستشهاد عدد كبير من أعلامهم[٥٣].

وكان من نتائج معركة (Salado) تمكن القوات الصليبية من احتلال الجزيرة الخضراء (Algeciras)[٥٤] وذلك سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م[٥٥]، وتحفز ملك قشتالة لاحتلال الأندلس كلها لولا فضل الله على الإسلام، فقد انتشر وباء هلك فيه ألفونسو الحادي عشر

---

[٥١] يسمى أيضاً نهر غرناطة ونهر سنجل. انظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص١٤٠-١٤١، ١٧٣؛ المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٤٨؛ حتاملة، الموسوعة، ج٢، ص١١٠٣.

[٥٢] الناصري، الاستقصا، ج٣، ص١٠٩.

[٥٣] ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص١٠٥-١٠٩؛ المقري، نفح الطيب، ج٥، ص١٤؛ الناصري، الاستقصا، ج٣، ص١٣٤-١٣٧؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٥٤٣؛ حتاملة، الأندلس، ص٥٨١.

[٥٤] مدينة تقع في أقصى جنوبي الأندلس بجوار جبل طارق. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص١٣٦؛ الحميري، الروض المعطار، ص٢٢٣؛ العذري، نصوص عن الأندلس، ص١١٧؛ حتاملة، الموسوعة، ج١، ص٣٩١ وما بعدها.

[٥٥] الناصري، الاستقصا، ج٣، ص١٣٧-١٣٨.

سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م، كما هلكت أعداد كبيرة من الجيوش الصليبية التي اشتركت في تلك الهجمة[٥٦].

د. سقوط غرناطة ومعاهدة تسليمها:

ويعكس المغزى الديني للحرب الصليبية التي شنها النصارى ضد مسلمي الأندلس بناء مدينة شنتفي (Santa Fe) على أبواب غرناطة سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م، فاسم هذه المدينة يعني الإيمان المقدس، وقد بناها ملك قشتالة فرناندو الخامس وزوجه الملكة إيزابيلا بشارعين متقاطعين على شكل صليب، قسما المدينة إلى أربعة أحياء في وسطها ميدان فسيح لاجتماع الجيش[٥٧].

وقد ارتبط بناء مدينة شنتفي بحصار غرناطة الذي انتهى بسقوطها، وبدأ هذا الحصار سنة ٨٩٦هـ/١٤٩٠م حين هاجم الإسبان غرناطة، وهدموا ما حولها من قرى وحصون، وضيقوا عليها الخناق، وقطعوا عنها جميع الإمدادات. ولما اشتد الأمر على أهلها المسلمين اضطروا بعد نحو سبعة أشهر من الحصار إلى تسليمها للملكين الكاثوليكيين فرناندو الخامس وإيزابيلا المرابطين في مدينة شنتفي، وقد دخلا المدينة في ثاني ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ/١٤٩١م[٥٨]، وذلك بموجب معاهدة علنية، وأخرى سرية نتذكر بعض نصوصها عندما نطالع اتفاقيات أوسلو المذلة التي وقعها الفلسطينيون مع اليهود، كما سيأتي.

---

[٥٦] عنان، نهاية الأندلس، ص١٢٢؛ حتاملة، الأندلس، ص٥٨٢.

[٥٧] عنان، نهاية الأندلس، ص٢٢٢؛ حتاملة، محنة مسلمي الأندلس، ص٥٠؛ الموسوعة، ج١، ص٦١٢-٦١٣.

[٥٨] انظر تفاصيل سقوط غرناطة في: المقري، ج٤، ص٥١٩ وما بعدها؛ مجهول، نبذة العصر، ص ٤٠-٤٣؛ حتاملة، الأندلس، ص٦٢٠-٦٢٢.

جاءت معاهدة تسليم غرناطة، أو قل استسلام الأندلس لنصارى قشتالة نتيجة للهجمة الصليبية التي شنها النصارى ضد المسلمين هناك على شكل حملات متتابعة. وساهم في نجاح تلك الهجمة فشل المسلمين في توحيد صفوفهم، وابتعادهم عن غايتهم الأولى التي قادتهم إلى فتح الأندلس، وهي الجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمة لا إله إلا الله، ونشر الدعوة الإسلامية بين الأمم والشعوب كافة، على عكس النصارى الذين وحدهم تعصبهم الديني، وجمّعهم الصليب، وتنادوا إلى نصر بعضهم بعضاً ضد الإسلام وحضارته، وتكاتفوا بابوات وأباطرة وملوكاً وأمراء في الوقت الذي لم يجد فيه المسلمون من بعضهم ولياً أو نصيراً.

وأمسى المسلمون في الأندلس غير قادرين على المناورة أو التحدي بعد أن نجحت الهجمة الصليبية ضدهم، وأصبحت سنابك الخيل النصرانية تدق أبواب معقلهم الأخير غرناطة، وأيدي الملكين الكاثوليكيين فرناندو الخامس وإيزابيلا تمتد لانتزاع الأقفال عن تلك الأبواب دونما رادع، ودونما خوف من مدد يأتي من هنا أو هناك من بلاد الإسلام الواسعة، ذلك أن الطرق أصبحت إلى الأندلس مقطوعة، وبلاد الإسلام في الشرق كله غارقة في مشكلاتها، وفي حروبها مع الصليبيين الذين هاجموها هناك أيضاً وقطعوا أوصالها.

لقد وقعت بين مسلمي الأندلس والقشتاليين اتفاقيتان في مدينة الصليب: شنتفي الرابضة على أبواب غرناطة، وذلك في ثاني ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ/ الخامس والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٤٩١م، وشكلت الاتفاقيتان ما عُرف بمعاهدة تسليم غرناطة[٥٩].

[٥٩] انظر الملحقين رقم (١) ورقم (٢)، وقد نشرت كاملة في: حتاملة، الأندلس، ص٦٣٦ وما بعدها؛ التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين، ص١٩ وما بعدها.

وكانت الاتفاقية الأولى علنية[10]، وقد عالجت بنودها السبعة والأربعون كيفية تسليم مدينة غرناطة للقشتاليين، وتناولت حقوق الطرفين وواجباتهما بما يوحي بأنها اتفاقية متكافئة.

أما الاتفاقية الثانية فقد كانت سرية[11]، وظلت فترة طويلة طي الكتمان. وهي تنحصر في ستة عشر بنداً تتضمن الحقوق والواجبات والامتيازات التي منحت لأبي عبد الله الصغير، ملك غرناطة، وأفراد أسرته وحاشيته.

وهذه المعاهدة باتفاقيتيها العلنية والسرية، يظن من ينظر إلى بنودها نظرة سريعة أنها متكافئة، وتحافظ على حقوق الطرفين، ولكن المتمعن الفاحص الذي يقرأ ما بين السطور، ويربط ما بين تلك البنود والظروف التي كانت سائدة على الأرض، يكتشف مدى الإجحاف الذي لحق بمسلمي الأندلس، فقد أخذ القشتاليون – من خلال هذه المعاهدة – كل ما تمنوا أخذه، وحققوا جميع أمنياتهم خاصة السيطرة على الأرض، في حين لم يحصل مسلمو الأندلس إلا على حزمة من الوعود التي سرعان ما نكثها القشتاليون، وتحللوا من الالتزام بأي منها.

لقد ألحقت هذه المعاهدة بالمسلمين أذى شديداً، وفي كشف خباياها وأبعادها ما فيه من عظة للأجيال، وعبرة للأمم والأقوام، خاصة المسلمين والعرب الذين يجب أن يكونوا أكثر حذراً ويقظة، وأن يرصوا صفوفهم، ويتنبهوا للأخطار المحدقة بهم، حتى لا يقعوا في مثل ما وقع فيه مسلمو الأندلس الذين كانوا – عند توقيع المعاهدة – يعانون من التشرذم والهزال الفكري والسياسي والعسكري، مما جعل الجانب القشتالي يفرض عليهم جميع شروطه، ويحقق كل أهدافه، ويدفع الاندلسيين دفعاً إلى الهزيمة والاستسلام.

إن توقيع المعاهدة لم يكن برضى المسلمين، ولا بملء إرادتهم، وإنما تم بعد حصار المدينة حصاراً طويلاً أدى إلى إضعاف المسلمين، وتحطيم معنوياتهم، وهدم عزائمهم.

---

[10] انظر الملحق رقم (1).

[11] انظر الملحق رقم (2).

ومن ينعم النظر في المعاهدة، ويستعرض بنودها، سرعان ما يكتشف أنها لم تكن بين القشتاليين وبين الملك أبي عبد الله الصغير، وإنما أشرك القشتاليون معه قادة الجيش والفقهاء والعلماء والوجهاء والحجاب والناس كافة، وذلك حتى تكون ملزمة للجميع، فلا يعمل أحد على نقضها أو التحلل منها محتجاً أنه لم يشارك في التوقيع عليها، أو أنه لم يوافق على محتوياتها(٦٢).

ونصت المعاهدة أيضاً على أن يقدم ملك غرناطة ووجهاء المدينة للجانب القشتالي قبل موعد التسليم بيوم واحد خمسمائة رهينة من أبناء علية القوم، وذلك لضمان عملية التسليم، على أن يظل هؤلاء رهائن لدى الجانب القشتالي لمدة عشرة أيام يتم خلالها ترميم معاقل الحمراء والبيازين(٦٣).

كما نصت المعاهدة على تحديد أماكن آمنة يتم الدخول الىالمدينة عبرها، وهي: باب العشار، وباب النجدة، والحقول الخارجية، وعلى أن يتم تجنب الدخول من وسط المدينة حيث الكثافة السكانية الكبيرة، والأسوار العالية، والحصون المنيعة، وذلك خشية حدوث ما لا تحمد عقباه، فقد كان القشتاليون يدركون أن سكان المدينة كارهون لهم، عازفون عن التعامل معهم. وعلى كل حال فإن تحديد تلك الأماكن يدل دلالة واضحة على أن الجانب القشتالي كان يعلم كل صغيرة وكبيرة داخل المدينة، وذلك من خلال العيون التي كان يبثها في كل مكان(٦٤).

ونصت المعاهدة كذلك على السماح لمسلمي الأندلس بالاحتفاظ بأسلحتهم الشخصية فقط أما الذخائر والأسلحة الهجومية فيجب أن يسلموها إلى القشتاليين(٦٥)، مما يدل على أن الأسبان كانوا يبيتون الشر، ويخططون لإجهاض أي محاولة قد يفكر بها المسلمون للثورة عليهم. يضاف إلى ذلك أن تجريد المقاتل من سلاحه سيحبطه، ويدفعه إلى الانزواء

---

(٦٢) انظر نص المادة الأولى من الاتفاقية الأولى (الملحق رقم ١).

(٦٣) المرجع نفسه.

(٦٤) نص المادة الثانية من الاتفاقية الأولى.

(٦٥) نص المادة الخامسة من الاتفاقية الأولى.

والبحث عن أنماط جديدة للحياة، مما يحقق للطرف القوي سيطرة كاملة على الأرض، ويقتل الأمل باستعادتها.

ولم يقتصر الأمر على ما تقدم، فقد انطوت المعاهدة على كثير من الخبث حيث نصت بنودها صراحة على أنه يحق لمسلمي الأندلس العيش والإقامة هناك بحرية تامة دون اضطهاد أو تمييز، ولكنها نصت في الوقت نفسه على السماح لهم بالهجرة إلى أرض المغرب. وقد استغل القشتاليون هذا النص بدهاء، حيث وفروا السفن لنقل الراغبين في الهجرة مجاناً خلال شهرين من تاريخ التوقيع على المعاهدة. فلم يكن أمام المسلمين – وقد حل بهم ما حل – إلا أن يستغلوا الفرصة، ويسارعوا إلى النجاة بجلودهم[٦٦].

وهناك بنود أخرى تبطن من التعسف والجور غير ما تظهر، وتوحي لمن يقرأها لأول وهلة بشيء من الرحمة، وقليل من التكافؤ، ولكنها تكشف للمتمعن الكثير من الظلم، فقد أعطت من يرغب في الهجرة من المسلمين الحق في بيع ممتلكاته جميعها، أو تفويض بيعها إلى من ينوب عنه إذا لم يتمكن من البيع خلال الفترة المحددة، إلا أنه لم تعط ضمانات لذلك، فلم يجرؤ أحد على المطالبة بحقوقه، ورفض غيره أن يكون مفوضاً للمطالبة بها وذلك بسبب القمع والاضطهاد المخيمين[٦٧].

لقد نجم عن تلك المعاهدة الكثير من المآسي والويلات، ومن ذلك تشرد الملايين من أهل البلاد المسلمين في شتى بلدان العالم، اذ لا تكاد تخلو دولة من دوله من مجموعة من المهجرين الذين يعودون بجذورهم إلى الأندلس.

ولو تتبعنا نصوص المعاهدة لعرفنا كيف أصبح مسلمو الأندلس أذلة بعد عزتهم، ولو تفحصنا ما رافقها من أحداث لأدركنا ما انطوت عليه من إرهاصات لما سيصيبهم من اضطهاد وقمع وتشتت، فقد أتاحت بعض نصوصها حرية العبادة، وسمحت ببقاء المساجد والمدارس دون المساس بالأوقاف المرصودة للإنفاق عليها، حتى تكفل لها الاستمرارية، وللعاملين فيها البقاء، إلا أن القشتاليين سرعان ما تنكروا لذلك، حيث بدأت المضايقات

---

[٦٦] نص المادة السادسة من الاتفاقية الأولى.

[٦٧] نص المادة السابعة من الاتفاقية الأولى.

تتزايد، والاستفزازات تكثر يوماً بعد يوم، ثم رفعوا في وجه المسلمين ذلك الشعار القاسي: التنصير أو التهجير.

وأوردت المعاهدة نصوصاً تتعلق بالضرائب يتراءى لمن يطالعها أنها لصالح المسلمين، دون أن يدرك ما تبيت في أحشائها، فقد أكدت تنازل القشتاليين عن الضرائب لمدة ثلاث سنوات، إلا أن الهدف الحقيقي من وراء هذا التنازل، إنما كان إتاحة الفرصة أمامهم لإحكام السيطرة على البلاد، وإنجاز عمليات الإحصاء الفعلي الدقيق للسكان والممتلكات،وذلك تمهيداً لفرض ضرائب باهظة تعويضاً للدولة القشتالية عما خسرته أثناء حصار غرناطة، وفي الاستعداد العسكري لاقتحامها من جهة، ولكي تجبر من بقي صامداً فيها من أهلها المسلمين على التفكير بالهجرة بعد أن تصبح الحياة فيها مستحيلة بسبب القمع والاضطهاد وارتفاع الضرائب من جهة ثانية، وخاصة أن المعاهدة نصت على إعادة دفع الضرائب عن الأملاك والأراضي السلطانية بعد انتهاء السنوات الثلاث، ولفق قيمة هذه الأملاك[٦٨].

وتضمنت المعاهدة بنوداً تتعلق بالأحوال الشخصية للمسلمين كالزواج والإرث والقضاء الإسلامي، وأوصت باحترام اختيار الإنسان لدينه دون ضغط أو إكراه، وغير ذلك مما يستشف منه الكثير من التسامح، ولكن عند التطبيق نقض القشتاليون هذه البنود، وأخذوا يجاهرون بمعاداة المسلمين، ويتفننون في إيذائهم لردهم عن دينهم الإسلامي[٦٩].

وحفظت المعاهدة – ظاهرياً – معظم حقوق المسلمين، فأكدت على أن النصارى لا يجوز أن يدخلوا مساجدهم، وأنهم لا يحق لهم استخدامهم في أعمال السخرة، أو استخدام ممتلكاتهم، وأن اليهود لن يكون لهم على المسلمين أي سلطة..ولكن التساؤل الذي يتبادر إلى الذهن هو: من الذي يضمن تنفيذ كل ذلك ما دام الخصم هو الحكم؟[٧٠].

وأما الأسرى فقد تطرقت إليهم المعاهدة في أكثر من بند، ولم يحاول الجانب القشتالي إخفاء تحيزه واستهتاره بالمسلمين في هذا المجال كما فعل في المجالات الأخرى،

---

[٦٨] نص المادة التاسعة من الاتفاقية الأولى.

[٦٩] نص المادتين الثانية عشرة والرابعة عشرة من الاتفاقية الأولى.

[٧٠] نص المادتين الثانية عشرة والرابعة عشرة من الاتفاقية الأولى.

فقد فرضت المعاهدة على المسلمين إطلاق سراح الأسرى النصارى الذين بحوزتهم طواعية، ودون أي فدية، وذلك حين تسليم المدينة، في حين يتم الإفراج عن الأسرى المسلمين خلال فترة تتراوح بين خمسة أشهر وثمانية أشهر[٢١].

ونصت المعاهدة على حرية التجارة، وأجازت بنودها للمسلمين الاستيراد والتصدير من المغرب وإليها، بل إن الإسبان تعهدوا بتأمين تجارة المسلمين أثناء ذهابهم وإيابهم مما يوهم بتسامحهم، فالحقيقة هي أنهم كانوا حريصين على مصلحتهم الذاتية وحسب، اذ أن التجارة بين الأندلس والمغرب كانت في هذه الفترة رائجة عظيمة، ولم يكن في مصلحتهم القضاء عليها، لأن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى كساد عميم لا يستطيعون احتماله[٢٢].

وهكذا، فإن نصوص هذه المعاهدة تدل بوضوح على أن القشتاليين كانوا يعدون العدة للانقضاض على المسلمين لطردهم من ديارهم، أو إجبارهم على ترك دين آبائهم.

لقد عانى مسلمو الأندلس (الموريسكيون) في ظل تلك الأوضاع الصعبة الكثير الكثير، حيث فرضت عليهم الضرائب الباهظة، وحددت أماكن إقامتهم حتى يسهل القضاء عليهم بسهولة إذا ما فكروا بالثورة أو الانتفاضة، ومن هنا بدأت رحلة التعذيب والبطش والموت لكل من أراد أن يستمر على دينه الإسلامي.

ومما ساعد على اشتداد حمى الاضطهاد الديني ضد المسلمين تعصب الملكة إيزابيلا، وذلك لصلتها برجال الدين، فقد شجع ذلك رجال الكنيسة على المضي قدماً في عمليات التنصير القسري للمسلمين.

وبعد انتفاضة البيازين عام ٩٠٥هـ/١٤٩٩م، وثورة البشرات عام ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م اتخذت السلطة الإسبانية قراراً يقضي بالسماح لرجال الدين بالتبشير بالديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي داخل مملكة غرناطة، وإذا لم تفلح عمليات التبشير هذه تنفذ عملية التنصير القسري وبشتى الوسائل والأساليب، وقد رافق ذلك إحراق الكتب

---

[٢١] حتاملة، نص المادة العاشرة من الاتفاقية الأولى.

[٢٢] حتاملة، نص المادة التاسعة والعشرين من الاتفاقية الأولى.

العربية حتى تنقطع الصلة بين الموريسكيين ودينهم ولغتهم. وأنشئت محاكم التفتيش التي أذاقت المسلمين شتى ألوان العذاب، وصنوف الاضطهاد من جلد بالسياط، ومصادرة للأموال، وحرق وتقتيل.

وخلاصة القول أن المعاهدة لم تكن متكافئة بأي حال من الأحوال، فقد وقعت بين طرفين أحدهما قوي متنفذ، والآخر ضعيف لا يملك من أمره شيئاً، وليس له حول ولا طول، ولذلك فإن ما حدث كان متوقعاً، بل لم يكن متوقعاً غيره. ولن يزيدنا إلا أسى وحسرة تذكر ما وقع من شواهد وأحداث بعد تلك المعاهدة، ومع ذلك يجب أن نتذكره لعلنا نتعظ، ونهيئ الظروف التي تجنبنا الوقوع فيما وقعوا فيه.

أما الاتفاقية الثانية (السرية)[٧٣] فقد وقعت في اليوم نفسه الذي وقعت فيه الاتفاقية العلنية، واشتملت على ست عشرة مادة تحدثت في مجملها عن مكتسبات الطرفين الموقعين عليها، ومن يتأمل مضمون هذه الاتفاقية يدرك بسهولة أن القشتاليين اتصفوا بالحذر والدهاء في حين اتصف الأندلسيون بالضعف والهزيمة. ومن ذلك أن الاتفاقية تحدثت طويلاً عن حقوق الملك أبي عبد الله الصغير، ملك غرناطة، وأسهبت في ذكر الامتيازات التي أعطيت له، غير أنها في مقابل ذلك فرضت على الملك وأعوانه وحاشيته أن يعلنوا ولاءهم وطاعتهم وإخلاصهم للملكين الكاثوليكيين[٧٤].

وأشارت الاتفاقية إلى حق الملك في بيع أراضيه وممتلكاته أو رهنها، ولكنها اشترطت أن تكون الأولوية عند البيع أو الرهن للملكين الكاثوليكيين[٧٥].

وسمحت الاتفاقية للملك أبي عبد الله الصغير بممارسة التجارة داخلياً وخارجياً، غير أنها قيدت التجارة الداخلية بينما جعلت الاتجار الخارجي مفتوحاً دون قيود، وكان المقصود من ذلك فتح قنوات الاتصال بين الملك وبين المغرب، الأمر الذي يشجعه على الهجرة إلى هناك، فيتخلص الملكان الكاثوليكيان منه. وهكذا كان إذ مارسا عليه الضغوط

---

[٧٣] انظر الملحق رقم (٢).

[٧٤] انظر نص المادة الأولى من الاتفاقية الثانية (الملحق رقم ٢).

[٧٥] نص المادة الثالثة من الاتفاقية الثانية.

المختلفة حتى اضطر إلى مغادرة بلاده وبلاد آبائه وأجداده الذين بنوها وعمروها نحو قرنين ونصف القرن[٧٦].

---

[٧٦] نص المادتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة من الاتفاقية الثانية، وكذلك انظر: حتاملة، الأندلس: ٦٦٤-٦٦٥.

أ. الغزو البرتغالي للمغرب العربي

انضم البرتغاليون إلى الإسبان في حشد الجيوش الصليبية ضد المسلمين، وبينما كان الإسبان مشغولين بحروبهم ضد مملكة غرناطة الإسلامية، بدأ البرتغاليون بتأييد البابوية ودعم الدول والإمارات الأوروبية والفرسان الأوروبيين بغزو المغرب العربي، وكان هدفهم هو إضعاف المسلمين اقتصادياً وبالتالي إضعافهم عسكرياً عن طريق تحويل طرق التجارة من ساحل غانة وسائر غرب إفريقيا عن طريق المغرب العربي الإسلامي، ومن ثم مهاجمة المسلمين في عقر دارهم.

ولذلك اهتم البرتغاليون بالملاحة وعلوم البحار وبناء الأساطيل التي كانت سفنها ترفع على ساريتها صورة الصليب. وكان هدفهم القيام بحركة اكتشافات جغرافية واسعة تؤدي إلى ضرب تجارة المسلمين والالتفاف حول البلاد الإسلامية، والوصول إلى مملكة الحبشة والتحالف مع ملكها المسيحي ضد المسلمين، وتطويق المسلمين تمهيداً لاحتلال مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس، وفرض السيطرة الصليبية على المشرق الإسلامي، وذلك بدعم من البابا الذي ظل يحث أوروبا والفرسان الأوروبيين على تعزيز النشاط البرتغالي والإسباني[٢٧].

وقد تجلت الروح الصليبية لدى البرتغاليين في نشاطات الأمير البرتغالي هنري الملاح (٧٩٧-٨٦٥هـ/١٣٩٤-١٤٦٠م)، وهو شقيق ملك البرتغال، وكان يحمل الصليب على ظهره. والجدير بالذكر أن هذا الصليبي حتى العظم – كما يقال – أمضى نصف قرن من حياته في محاربة المسلمين عسكرياً واقتصادياً، وقد جمع من حوله الفرسان الصليبيين الفارين من ضربات المسلمين في المشرق وألف جماعة منهم عرفت باسم (جماعة المسيح) [٢٨].

وكان أول مشاريع هنري الملاح احتلال مدينة سبتة المغربية، حيث بسط حماية البرتغاليين عليها سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م، ثم حاول الاستيلاء على طنجة، غير أن

---

[٢٧] حتاملة، الأندلس، ص٩٨٧.

[٢٨] رضوان، جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، ص٣١-٣٢؛ حتاملة، الأندلس، ص٩٨٧.

اسروه، وذلك سنة ٨٢٢هـ/١٤٢٠م، ثم اطلق سراحه بعد ان تعهد بالانسحاب من سبتة لكنه لم يحترم هذا التعهد[٧٩].

وازدادت الهجمة الصليبية ضد السواحل المغربية بقيادة البرتغال بعد تمكن المسلمين في المشرق من فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م، فقد جهز ملك البرتغال ألفونسو الخامس استجابة لدعوة البابا بيوس الثاني (٨٦٣-٨٦٩هـ/١٤٥٨-١٤٦٤م) أسطولاً كبيراً احتلوا بوساطته المنطقة بين سبتة وطنجة سنة ٨٦٢هـ/١٤٥٧م، ثم احتلوا آسفي سنة ٨٧٤هـ/١٤٦٩م، ثم أصيلا بعد عامين، ثم العرائش وطنجة سنة ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م، وبذلك تم للبرتغاليين إحكام الحصار حول المعبر الجنوبي لشبه الجزيرة الأيبيرية، وقطعوا الاتصال بين المغرب ومملكة غرناطة الإسلامية[٨٠]. وهكذا أسهم البرتغاليون بشكل فعال بالتعجيل في سقوط غرناطة بأيدي الإسبان، اذ لم يعد بإمكان المغاربة المسلمين بعد أن قطعت طريقهم إلى الأندلس عبر مضيق جبل طارق مد يد العون لإخوانهم المسلمين فيها.

ويشار هنا إلى أن البابا إسكندر السادس (١٤٩٢-١٥٠٣م) رعى توقيع اتفاقية بين إسبانيا والبرتغال سنة ٩٠٠هـ/١٤٩٤م قسم المغرب بموجبها إلى منطقتين، تقع الأولى شرق حجر باديس المغربية ويتولى فيها الإسبان مهمة الاستيلاء والسيطرة، وتقع الثانية إلى الغرب منها وقد أطلقت يد البرتغاليين فيها[٨١].

وخلاصة القول في معاهدة تسليم غرناطة أنها كانت بين طرفين أحدهما قوي منتصر، والثاني ضعيف منكسر، وما يقال عن تلك المعاهدة باتفاقيتها وطرفيها لا يمكن أن يقال غيره عن اتفاقيات أوسلو السرية والعلنية التي وقعها الفلسطينيون الضعفاء بافتقارهم إلى نصرة إخوانهم العرب المسلمين الحازمة مع ربيبة الصليبيين، وهو ما سنتناوله فيما بعد.

---

[٧٩] الناصري، الاستقصا، ج٤، ص٩٢؛ اليوسف، علاقات بين الشرق والغرب، ص٢٥٧.

[٨٠] المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ص٢٦٣-٢٦٤؛ رضوان، جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، ص٣١-٣٣؛ الجمل، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، ص٤٩.

[٨١] حتاملة، الأندلس، ص٩٨٩.

ب. الغزو الإسباني للمغرب العربي:

توجهت أنظار الملكين الكاثوليكيين بعد احتلالهما لمدينة غرناطة إلى المغرب العربي الذي كان ممزقاً بين الوطاسيين في فاس والحفصيين في تونس، والبربر في الجزائر، وهو الوضع الذي ماثل الوضع في الأندلس أيام ملوك الفتنة، ويماثل وضع العالم العربي اليوم. فحالة الضعف والتمزق التي كانت سائدة في المغرب العربي أثارت شهية الإسبان ومطامعهم الصليبية، وقد كانت الملكة إيزابيلا من أشد المتحمسين لسحق المسلمين، حتى أنها أوصت قبل وفاتها عام ٩١٠هـ/١٥٠٤م بأن تقوم خليفتها الأميرة خوانا وزوجها الأمير فيليب بمتابعة احتلال إفريقية، ومحاربة (الكفار) أي المسلمين واليهود[٨٢].

وقد سارع الإسبان إلى تنفيذ وصية الملكة الكاثوليكية المتعصبة، فشنوا حرباً صليبية على السواحل المغربية، وقتلوا آلاف المسلمين، واحتلوا مدينة مليلة سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م. وفي عام ٩١٤هـ/١٥٠٨م احتلوا حجر باديس في ساحل المغرب الأقصى، ثم سقط في أيديهم المرسى الكبير ووهران وبجاية وميناء طرابلس الذي احتلوه عام ٩١٦هـ/١٥١٠م.

وكانت الحروب التي شنها الملكان الكاثوليكيان ضد المسلمين في الأندلس قد استنفدت الكثير من قوتهما العسكرية، ولتعزيز هذه القوة استعداداً لمواصلة ضرب المسلمين في كل مكان استقدما الخبراء والعلماء من جميع أنحاء أوروبا، خاصة فرنسا وإيطاليا وألمانيا لإدخال التحسينات على المدفعية، وصناعة الطلقات والبارود، وشتى أنواع الأسلحة التي كانت معروفة في ذلك الوقت[٨٣].

وبعد أن أدخل الملكان الكاثوليكيان التحسينات المطلوبة، والإصلاحات الضرورية على الجيش الإسباني، وذلك عام ٩٠٩هـ/١٥٠٣م، قاما بإنشاء جيش آخر من الصليبيين، فقد استقدما أفراداً من إيطاليا، والبرتغال، وألمانيا، وفرنسا، وإنجلترا، وسويسرا. وأوكلت

---

[٨٢] الناصري، الاستقصا، ج٤، ص١٥٠-١٥٦؛ حتاملة، الأندلس، ص٩٩١.

[٨٣] حتاملة، الأندلس، ص٩٨٤.

لهذا الجيش الصليبي مهمة شن الغارات المتلاحقة على بلاد المغرب العربي لضرب القوى الإسلامية هناك[٨٤].

[٨٤] حتاملة، الأندلس، ص٩٨٤.

اختلطت الدوافع الدينية للحروب الصليبية مع الأطماع السياسية والاقتصادية للممالك الأوروبية، كما اختلطت مع الأحوال التي كانت سائدة في أوروبا وفي البلاد الإسلامية قبيل بداية هذه الحروب، فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية ترغب في بسط سيطرتها على الكنيسة الشرقية تحت ستار مساعدة الإمبراطور البيزنطي في حربه ضد المسلمين ولا سيما بعد هزيمته أمام المسلمين في معركة ملاذكرد سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م. وقد استغلت الكنيسة في سبيل ذلك الشعور الديني لدى المسيحيين لحثهم على الحج إلى الأراضي المقدسة فأعلن البابا أنه سيمنح الغفران لكل من يشارك في هذه الحروب ضد المسلمين في المشرق والمغرب. كما وجدت البابوية في هذه الحروب فرصة لتوجيه الفرسان الأوروبيين الذين كان يحارب بعضهم بعضاً لمحاربة المسلمين، وأغرت هؤلاء الفرسان بإقامة إقطاعات لهم في بلاد المسلمين، كما استغل البابا قوة النورمان الذين استطاعوا انتزاع صقلية من العرب سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م وأصبحوا بذلك على مقربة من بلاد المسلمين. وقد اتضحت السياسة البابوية في الخطاب الذي ألقاه البابا أوربان الثاني في كليرمنت في جنوب فرنسا عام ١٠٩٥م داعياً الفرسان الأوروبيين إلى حمل الصليب ضد المسلمين، وحاثاً إياهم على انتزاع الأراضي المقدسة وسائر أراضي المسلمين لأنفسهم، وقد اتفقت هذه الدعوة مع أطماع الفرسان في إنشاء إمارات لهم في أراضي المسلمين.

وساهمت المدن التجارية الإيطالية في هذه الحروب بتقديمها السفن والمساعدات المالية طمعاً في السيطرة على تجارة الشرق الغنية، وقد تزامن هذا مع سوء الأحوال في البلاد الأوروبية الناجم عن ظلم الإقطاعيين وانتشار الفقر والمرض والقحط. وهكذا فقد كان لكل من شارك في الحرب الصليبية أطماعه الخاصة.

أما أحوال المسلمين في المشرق والأندلس فكانت على ما هي عليه من تفكك وتجزئة تغري الصليبيين بالمضي قدماً في مشروعهم، وهكذا جرى الإعداد للمشروع الصليبي مسبقاً[٨٥].

ولم تكن رحلة بطرس الناسك إلى الأراضي المقدسة سوى الشرارة التي ألهبت هذه الحروب التي اقترنت بالكثير من الفظائع الوحشية التي ارتكبها الأوروبيون ضد المسلمين بل وضد المسيحيين الشرقيين، حتى أن الحملة الصليبية الرابعة لم توجه إلى الأراضي المقدسة بل وجهت إلى القسطنطينية وترتب عليها احتلال هذه المدينة وإنشاء إمارة لاتينية فيها.

وقد قام بطرس الناسك (Pierre l Ermite)، (١٠٥٠-١١١٥م) الراهب الفرنسي المتعصب بزيارة للقدس عام ٤٤٦هـ/١٠٥٤م، فقد زعم أن السلاجقة[٨٦] يعاملون الحجاج المسيحيين الذين يؤمون بيت المقدس بظلم وقسوة وخشونة، ولا بد من تخليص الأراضي المقدسة منهم[٨٧]. والحقيقة أن السلاجقة لم يكونوا كذلك قد انتهجوا السياسة الوفية التي استقرت منذ الفتح الإسلامي لهذه البلاد تجاه النصارى واليهود، ذلك أنهم بموجب تعاليم الدين الإسلامي يؤمنون بإله واحد، ولكنهم انحرفوا عن الصراط المستقيم، وعن الكتب المقدسة: التوراة والإنجيل، ولذلك تعامل معهم المسلمون باعتبارهم مؤمنين ضالين، واقتصر هذا التعامل على أخذ الجزية، بينما ترك لهم ممارسة شعائرهم الدينية بلا عائق[٨٨]، بل إن الفتح الإسلامي لبلاد الشام بما فيها القدس كان المخلص للنصارى الأرثوذكس والمونوفيسيين القائلين بأن للمسيح طبيعة واحدة، والنسطوريين والغرغوريين من مظالم الكنيسة البيزنطية، الدينية منها والضرائبية[٨٩].

---

[٨٥] عاشور، أوروبا العصور الوسطى، التاريخ السياسي، ج١، ط٣، ص٤٥١، ٤٥٣.

[٨٦] بدأ عهد السلاجقة بدخول طغرل بك، السلجوقي بغداد عام ٤٤٦هـ/١٠٥٤م. انظر: فردريك ج. بيك، تاريخ شرقي الأردن وقبائلها، ص١٦٨.

[٨٧] فردريك بيك، تاريخ شرقي الأردن وقبائلها، ص١٦٨.

[٨٨] زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص٣٤.

[٨٩] المرجع نفسه، ص٣٤-٣٥.

لقد كان بإمكان الحجاج النصارى أن يزوروا القدس وغيرها من الأراضي المقدسة دون أن تتعرض مشاعرهم الدينية للإهانة من أي نوع بعكس ما ادعاه بطرس الناسك مما يدل على أن هناك أسباباً أخرى وراء شن الحروب الصليبية لا يتسع المقام لبسط تفاصيلها، ولكنها تتلخص في أن الغرب النصراني استهدف من ورائها ضرب الإسلام وحضارته في محاولة لإضعافه ثم القضاء عليه.

عرج بطرس الناسك في طريقه إلى بلاده عائداً من زيارته للقدس على البابا أوربان الثاني (١٠٨٨-١٠٩٩م) الذي استمع إلى مزاعم بطرس عما يلاقيه النصارى من اضطهاد في الشرق، وأمر الناسك بنشر الدعوة في أنحاء أوروبا لإعلان الحرب المقدسة لتخليص القدس وفلسطين من أيدي المسلمين. بل بادر أوربان الثاني نفسه إلى تنظيم حملة جماهيرية على الشرق، فقد زار فرنسا وعقد في تشرين الثاني عام ١٠٩٥م مجمعاً لرجال الدين في مدينة كليرمن فران الفرنسية حيث توافد آلاف الفرسان وعدد كبير من ذوي الألقاب الدينية منهم (٣٠٠) أسقف، و(٤٠٠) من رؤساء الأديرة. ومن هناك أطلق البابا أوربان الثاني النداء الذي دعا الغرب النصراني إلى الحرب الصليبية في الشرق[٩٠].

لقد ألقى أوربان الثاني خطاباً نارياً استمع إليه الفرسان والأسياد والفلاحون الذين كانوا يتضورون جوعاً في أوروبا، وكذلك العبيد المعذبون على أيدي أسيادهم الإقطاعيين، وقد وجد هؤلاء في وعود البابا حافزاً لتحقيق مآربهم الدنيوية تحت الغطاء الديني الذي فرده أوربان، حيث أكد أن من يتجند للدفاع عن الصليب يغتسل من ذنوبه وسيئاته[٩١].

وعلى الأثر توجهت جموع الصليبيين بقيادة بطرس الناسك وولتر المفلس في غير نظام نحو الشرق عن طريق البلقان حيث عاثت فيها فساداً، وتشتتت هذه الحملة قبل وصولها إلى الأراضي المقدسة.

وكانت هذه الحملة التي تألفت من نحو ثلاثمائة ألف من أخطر المجرمين وأوحش الناس في أوروبا قد بدأت زحفها نحو الشرق في عام ٤٨٨هـ/١٠٩٥م بقيادة بطرس

---

[٩٠] زابوروف، الصليبيون في الشرق ، ص٤١-٤٣.

[٩١] المرجع نفسه، ص٥٥-٥٨؛ فردريك بيك، تاريخ شرقي الأردن، ص١٦٩.

الناسك، وكان أول من تعرض لقطائعهم هم اليهود في حوض نهر الراين بدعوى أنهم صلبوا ابن الله، فساموهم أنواع العذاب من قتل وضرب ونهب وسلب[٩٢]. وتوجهت حملة أخرى وهي التي عرفت بالحملة الأولى إلى الشرق بقيادة عدد من الأمراء الصليبيين أشهرهم جودفري أمير اللورين وأخوه بلدوين وريموند أمير طولوز وبوهمند النورماندي وابن أخيه تنكرد، ووصلت هذه الحملة في عام ٤٩١هـ/ ٢١ تشرين الأول عام ١٠٩٧م إلى أنطاكية التي تقع على بعد اثني عشر ميلاً من البحر الأبيض المتوسط داخل الأراضي السورية. وبعد سلسلة من المعارك تمكنت القوات الصليبية من احتلال المدينة، ثم احتلوا مدينة معرّة النعمان في عام ٤٩٢هـ/١١ كانون الأول عام ١٠٩٨م ونهبوا المدينة وأبادوا سكانها، وارتكبوا فيها الفظائع، فقد ذكر أحد شهود العيان من المشاركين في هذه الحملة: "كان الإفرنج يقتلون كل مسلم، سواء كان رجلاً أم امرأة، حيثما يجدونه"[٩٣].

وقد أمر بوهيمند (Bohemund Tarentum) بأن يجتمع سكان المدينة مع نسائهم وأولادهم وأموالهم في قلعة المدينة واعداً بإنقاذهم من الموت، وعندما اجتمعوا انتزع كل ما معهم من أموال، وأمر بقتل بعضهم، وبسوق الآخرين إلى أنطاكية ليبيعهم كعبيد[٩٤].

وتدافع الصليبيون بعد احتلالهم أنطاكية جنوباً نحو القدس في طابورين كبيرين، أحدهما بقيادة ريموند، كونت تولوز (Raymond of Toulouse) الذي سار بمحاذاة جبال النصيرية، والثاني بقيادة غودفري دي بويون (Godfrey of Bouillon) الذي سار بمحاذاة الساحل. وكانت أوضاع المسلمين في المنطقة مشابهة لتلك التي كانت سائدة في الأندلس، وشجعت الصليبيين على اقتحام بلادهم، فالأمراء السلجوقيون في خلافات دائمة، وبعضهم يشن الحرب ضد بعضهم الآخر وخاصة بين رضوان بن تتش صاحب حلب، ودقاق صاحب دمشق اللذين كان الخصام بالغ الحدة بينهما. وفي الوقت نفسه استغل الفاطميون الوضع وشنوا حرباً ضد السلاجقة، واستولوا على القدس في عام ٤٩٢هـ/ آب ١٠٩٨م.

---

(٩٢) فردريك بيك، تاريخ شرقي الأردن، ص١٦٩.

(٩٣) زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص١١٠-١١١.

(٩٤) المرجع نفسه، ص١١٠-١١١.

وفي ظل هذا التمزق آثر حكام طرابلس وبيروت وصيدا وصور من العرب المسلمين تجنب الاشتباك مع الصليبيين(٩٥).

اقترب الصليبيون من القدس في عام ٤٩٣هـ/ فجر السابع من حزيران سنة ١٠٩٩م، وحاصروها وأخذوا يقذفونها بالحجارة والسهام وجذوع الأشجار ورزم القش الملتهبة، وتمكنوا من اقتحامها في ١٥ تموز من السنة نفسها تحت وابل من الحجارة والسهام والقذائف المحشوة بالمواد السريعة الاشتعال التي انهال بها الفاطميون على رؤوس الصليبيين، ومع ذلك تمكن الصليبيون الذين انقضوا بقسوة ووحشية وضراوة على المدينة من دخولها حيث ارتكبوا في أهلها من الفظائع ما تقشعر له الأبدان(٩٦).

لقد فاق ما فعله الصليبيون في القدس ما فعله أقرانهم الصليبيون في بربشتر بالأندلس، اذ يذكر شهود عيان أنهم ذبحوا في المسجد الأقصى عشرة آلاف شخص، ومما له دلالات كبيرة في هذا الشأن أن الفرسان الصليبيين كانوا يقيمون صلواتهم أمام قبر السيد المسيح ثم ينتقلون فوراً إلى الأعمال الدموية، فيذبحون الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والأصحاء والمقعدين، ويسحقون رؤوس الرضع على الحجارة، وينهبون كل ما يجدونه. وفضلاً عن المسلمين سقط يهود القدس ضحية لجنود الصليبيين، فقد اجتمعوا في كنيس كبير، وفيه أبادهم الصليبيون عن بكرة أبيهم، ثم أحرقوا الكنيس بمن فيه(٩٧).

وعندما تناهت أخبار احتلال القدس إلى أسماع البابا باسكال الثاني (٤٩٣-٥١٢هـ/١٠٩٩-١١١٨م)، دعا إلى ضرورة مكافأة الكنيسة الكاثوليكية بصورة مناسبة لأنها هي التي بادرت إلى هذه الحملة الصليبية. وهذا الأمر له أيضاً دلالته الكبيرة غير الخافية.

وأسفرت الحملة الصليبية الأولى عن إنشاء إمارات صليبية في الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس، ومن الواضح أن نجاح الصليبيين في إقامة كيان لهم في بلاد الشام إنما يعود إلى انقسام المسلمين وغياب وحدتهم.

---

(٩٥) زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص١١٩؛ فردريك بيك، تاريخ شرقي الأردن، ص١٧٠.

(٩٦) زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص١٢٢.

(٩٧) المرجع نفسه، ص١٢٣.

وكان من الضروري أن يؤدي هذا التحدي الصليبي إلى رد فعل إسلامي تمثل في حركة الجهاد التي بدأها نور الدين زنكي وتوّجها باستعادة إمارة الرها سنة ١١٤٤هـ، وهو الحدث الذي أدى إلى إثارة الخوف والفزع في صفوف الصليبيين مما أدى إلى إرسال حملة صليبية ثانية.

وبدأت الاستعدادات في أوروبا لبدء الحملة الصليبية الثانية عام ٥٤٢هـ/١١٤٧م، ففي ذلك العام اجتمع عدد من الأعيان الفرنسيين بمشاركة مندوبين من ألمانيا وإسبانيا وإيطاليا وإنجلترا وقرروا أن تنطلق هذه الحملة في أواسط أيار من عام ١١٤٧م بقيادة كونراد الثالث ملك ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا. غير أن هذه الحملة فشلت فشلاً ذريعاً في تحقيق أهدافها في الشرق بسبب الخلافات بين قادتها وبسبب الهجمات القوية التي شنها المسلمون ضدها[٩٨]. والنجاح الوحيد الذي حققته هذه الحملة هو قيامها بمساعدة ملك البرتغال في احتلال لشبونة من أيدي المسلمين في الأندلس أثناء توقفها للتزود بالمؤن في ميناء (بورتو) البرتغالي، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

وما يجب التأكيد عليه باستمرار هو أن الصليبيين لم ينجحوا في هجماتهم ضد المسلمين إن في المشرق وإن في الأندلس إلا في زمن الضعف والتمزق الإسلاميين، فالصليبيون نجحوا في الأندلس عندما انهارت الدولة الإسلامية الواحدة وصارت دويلات متناحرة أخفقت في استعادة لحمتها. والصليبيون نجحوا في المشرق عندما توزع الدولة الإسلامية الواحدة أمراء مسلمون عديدون تناحروا فيما بينهم، وخلفوا الجهاد في سبيل الله وراء ظهورهم، واستعانوا على بعضهم بأعداء الإسلام المتربصين بهم جميعاً. ولكنهم، أي المسلمين، كانوا في أثناء وحدتهم، وتمسكهم بدين الله، وحرصهم على نصرته، أعزاء في بلادهم، قادرين على دحر أعدائهم وإن كانوا قلة، وأعداؤهم كثر يمتلكون أسباب القوة. والشواهد على ذلك كثيرة معروفة، فعشرة آلاف من المشركين لم يصمدوا أمام بضع مئات في معركة بدر، والإمبراطوريتان الرومانية والفارسية لم تصمدا أمام دولة الإسلام

---

[٩٨] زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص١٧٧ وما بعدها.

الناشئة، والمشرق الإسلامي في زمن الحروب الصليبية أصبح ذا شأن عندما تمكن صلاح الدين الأيوبي من توحيده[٩٩].

لقد وحد صلاح الدين مصر وقسماً كبيراً من بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين في حقبة قصيرة، وصار أقوى حاكم في العالم الإسلامي وكان أول ما فعله هو تنظيم الشؤون المالية لدولته، وتوجيه مواردها كافة إلى الجهاد ضد الصليبيين، مستهدفاً في المقام الأول القضاء على مملكة القدس الصليبية. وبدأ ضغط المسلمين المنتظم على الصليبيين منذ النصف الثاني من ثمانينات القرن الثاني عشر الميلادي، وأتاح ذلك لصلاح الدين اقتحام المقاطعات الداخلية من مملكة القدس، ثم اشتبك مع الصليبيين في معركة حطين الخالدة في عام ٥٨٣هـ/٤ تموز ١١٨٧م حيث حقق المسلمون باتحادهم نصراً مؤزراً مما مهد لطرد الصليبيين من القدس، فقد حاصرتها قوات صلاح الدين في النصف الثاني من شهر أيلول عام ١١٨٧م، وفي الثاني من تشرين الأول عام ١١٨٧م استعاد المسلمون المدينة، وعادت رايات السلطان الصفراء تخفق فوقها باعتزاز[١٠٠].

ويجب هنا التأكيد على حقيقة تاريخية بالغة الأهمية، وهي أن مسلمي الأندلس ساهموا مساهمة فعالة في تحرير القدس من أيدي الصليبيين، ذلك أن أعداداً كبيرة من أولئك المسلمين ظلوا في مدنهم بعد سقوطها بيد الإسبان، واستمروا على دينهم يمارسون شعائرهم الإسلامية سراً في ظل الحكم الإسباني، وقد عرف هؤلاء باسم (المدجنين). وقد انخرط هؤلاء في الحملات الصليبية المتجهة إلى المشرق الإسلامي عبر إسبانيا، وهناك أصبحوا يعملون أعيناً لصلاح الدين الأيوبي، يزودونه بتحركات الصليبيين، وبمواطن قوتهم وضعفهم مما مكنه من تحقيق النصر الحاسم عليهم في معركة حطين.

وكان دافع المدجنين إلى مساعدة صلاح الدين الأيوبي في حربه ضد الصليبيين في المشرق هو قناعتهم بأنه سيقود المسلمين – بعد أن يحقق النصر – إلى إسبانيا ليحرر

---

[٩٩] قائد مسلم كردي الأصل، برز عندما كان والده أيوب وعمه أسد الدين شيركوه يشغلان مناصب رفيعة في بلاط عماد الدين زنكي. انظر: زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص١٨٨–١٨٩.

[١٠٠] زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص١٨٩–١٩٢.

منهم من أيدي القشتاليين، هذا إلى جانب دافع آخر هو الجهاد في سبيل الله، ولنصرة الإسلام ضد أعدائه.

والجدير بالذكر أن كثيرين من المدجنين أقاموا في المشرق، خاصة في القدس المحررة، وقد عرفوا باسم المغاربة، وحي المغاربة وكذلك (باب المغاربة) الموجودان في القدس الشريف إنما سميا باسمهم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن صلاح الدين الأيوبي لم ينتقم بذبح الصليبيين لما فعلوه بالمسلمين عندما احتلوا القدس قبل نحو مائة عام، وهذه ميزة لحضارة الإسلام على غيرها من الحضارات، فقد سمح لسكان القدس النصارى بمغادرة المدينة خلال أربعين يوماً، فغادروها بعد أن دفعوا فدية لذلك دون أن يلحق بهم أي أذى، أو تسيل منهم قطرة دم[١٠١].

كان وقع استعادة القدس إلى حظيرة الإسلام شديداً على نصارى الغرب، فالبابا أوربان الثامن توفي من الصدمة، ودعا خليفته البابا غريغوريس الثامن إلى شن حملة صليبية جديدة، فقد أصدر منشوراً بابوياً في ٢٩ تشرين الأول عام ١١٨٧م أمر فيه الكاثوليك بالصيام يوم الجمعة من كل أسبوع لمدة خمس سنوات، وبالامتناع خلال هذه المدة عن أكل اللحم مرتين في الأسبوع، والدعوة إلى الحرب الصليبية. وقد تلقف هذه الدعوة البابا كليمنت الثالث الذي خلف غريغوريوس بعد شهرين، حيث وجه الكاردينالات إلى التطواف مشياً على الأقدام في أنحاء فرنسا وإنجلترا وألمانيا لبث الحماس الديني، وتجنيد النصارى للمشاركة في حملة صليبية جديدة[١٠٢]. والحقيقة أن معركة حطين أدت إلى تمزق الصليبيين وخسارتهم لمعظم فرسانهم بحيث سارعت أوروبا إلى إرسال حملة جديدة هي الحملة الثالثة.

وبدأت الحملة الصليبية الثالثة عام ٥٨٥هـ/١١٨٩م بمشاركة بلدان أوروبا الغربية، غير أن هذه الحملة أمام صمود المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي لم تحقق

---

[١٠١] زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص١٩٢.

[١٠٢] المرجع نفسه، ص١٩٢-١٩٤.

أهدافها، بل منيت في حروبها معه بخسائر فادحة، واضطر ملك إنجلترا ريتشارد الأول (قلب الأسد) إلى التفاوض مع صلاح الدين مما أفضى إلى عقد صلح معه في عام ٥٨٩ هـ/ الثاني من أيلول سنة ١١٩٢م[١٠٣]. وعلى الرغم من إخفاق الحملة الصليبية الثالثة لم تفتر عزيمة الصليبيين، بل تعالت في الغرب من جديدة صيحة بابوية: "إلى الشرق".

أرسل البابا إينوسنت الثالث (٥٩٥-٦١٣هـ/١١٩٨-١٢١٦م) في شهر آب وأيلول من سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م رسائل بليغة إلى فرنسا وألمانيا وإنجلترا وإيطاليا والمجر دعا فيها إلى الاشتراك في الحملة الصليبية الرابعة، وأمر جميع رجال الدين بأن يطالبوا بمشاركة الكاثوليك في الحملة دون أي تردد أو شروط. كما أعلن البابا غفران الخطايا على أوسع نطاق، وأن الخلاص الأبدي سيكون جزاء كل من يساهم في الحملة بالنفس أو بالمال. غير أن هذه الحملة غيرت وجهتها فبدلاً من التوجه إلى القدس سارت معظم القوات المشاركة فيها إلى القسطنطينية، عاصمة بيزنطة واجتاحتها، وذلك في سنة ٦٠١هـ/١٣ نيسان عام ١٢٠٤م، وقد فاقت الجرائم الوحشية التي ارتكبها الصليبيون في القسطنطينية كل ما سبقها في التاريخ، وفيها داس الصليبيون راياتهم الدينية، وأظهروا أنهم ليسوا حماة أتقياء للدين المسيحي، وإنما مجرد مغامرين جشعين وغزاة لا مبدأ لهم تستروا بالدين للقيام بمشاريع اغتصابية على حساب دولة الإسلام أولاً، وحساب كل من يخالف الكنيسة الكاثوليكية ثانياً[١٠٤].

وقد فشلت الحملات الصليبية اللاحقة الخامسة والسادسة والسابعة في حماية الكيان الصليبي في بلاد الشام، فقد وجهت الحملتان الخامسة والسابعة ضد مصر باعتبارها مركز الثقل في القوة الإسلامية بينما وجهت الثامنة إلى تونس. وانتهى الأمر بزوال الكيان الصليبي نهائياً من بلاد الشام سنة ١٢٩١م على أثر سقوط عكا آخر معاقلهم في يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، غير أن الروح الصليبية ظلت قائمة في أذهان الأوروبيين في القرون اللاحقة.

---

[١٠٣] زابوروف، الصليبيون في الشرق ، ص٢١١.

[١٠٤] المرجع نفسه، ص٢١٤ وما بعدها.

وخلاصة القول أن الهجمة الصليبية على المشرق الإسلامي شكلت صورة مهمة في تاريخ العلاقات بين الغرب الكاثوليكي وهذه المنطقة، وكانت هذه العلاقات تتسم على الأغلب بالمواجهة، وفي هذا السياق نشأ في قلب الكاثوليكية نظام خاص يجند الحروب الاغتصابية التي يشنها الغرب النصراني ضد الأمة الإسلامية، ويؤلف ذلك بمجمله ما يمكن أن نسميه اصطلاحاً أيديولوجية الحروب الصليبية القائمة على العداء والكره للمسلمين.

وقد طبقت الأيديولوجية الصليبية ضد المسلمين حيث استمرت الحرب في القرن الرابع عشر ضد المماليك، وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر ضد العثمانيين. وعلى امتداد القرون كانت السياسة الشرقية للدول الأوروبية تتلون بلون تلك الأيديولوجية.

وأصبح الغرب النصراني منذ مطلع القرن الرابع عشر الميلادي يصوغ مشاريع جديدة لإخضاع الشرق الإسلامي واحتوائه، ومن ذلك العمل على اعتناق المسلمين للمسيحية بصورة سلمية، وقد دعا إلى ذلك صراحة الشاعر والفيلسوف الإسباني ريمون لول في دراسة له بعنوان: "جدال المسيحي ريمون مع المسلم عمر"، وقام لهذه الغاية برحلة تبشيرية إلى تونس سنة ١٣٠٧م.

وشن الصليبيون في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين حملات صليبية جديدة ضد العثمانيين الذين تمكنوا من فتح شبه جزيرة البلقان، وهددوا أوروبا الشرقية الجنوبية، وكان كثيرون من بابوات روما يبادرون إلى الحملات الصليبية ضد العثمانيين، ويدعمون الائتلافات الصليبية الأوروبية بالأموال والمقاتلين.

والجدير بالذكر هنا أن القوات الإسلامية بقيادة العثمانيين نجحت في التصدي للحملات الصليبية المتكررة ضدها، وفتحت القسطنطينية في سنة ٨٣٩هـ/ ٢٩ أيار ١٤٥٣م على يد السلطان العثماني محمد الفاتح. غير أن انشغال العثمانيين المسلمين بحروبهم ضد النصارى على الجبهة الشرقية حال دون تقديمهم يد العون لمسلمي الأندلس، مما جعل الأحداث المؤلمة تتسارع هناك، وتنتهي بسقوط غرناطة في عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م.

واتخذت الحروب الصليبية منذ أوائل القرن السابع عشر أشكالاً جديدة، فبالإضافة إلى القوة العسكرية، عمل الصليبيون على إضعاف المسلمين بالسيطرة على التجارة، وعلى الموارد الاقتصادية إلى غير ذلك من أساليب، وربما كان من بدايات ذلك تلك الدعوة التي نادى بها الفيلسوف الإنجليزي الشهير بيكون، حيث ألف كتاباً عام ١٠٣١هـ/١٦٢١م بعنوان: (حوار حول الحرب المقدسة) أشار فيه إلى ضرورة إضفاء الصفة القانونية على الحروب الاستعمارية ضد المسلمين متذرعاً بالحجج الدينية الصليبية ذاتها.

الحرب الصليبية مستمرة

بدأت الحروب الصليبية الاقتصادية ضد المسلمين قبيل سقوط غرناطة في أيدي النصارى، ففي سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٧م بدأت محاولات البرتغاليين المتعصبين للمذهب الكاثوليكي السيطرة على العالم الإسلامي، حيث جهز ملك البرتغال خوان الثاني في تلك السنة حملة بحرية من ثلاث سفن بقيادة بارثولوميو دياز وأمره بإيجاد طريق بحرية تؤدي إلى الهند[١٠٥] بهدف السيطرة على تجارتها التي كانت رائجة آنذاك، وهي تجارة التوابل بأنواعها، التي كان يسيطر عليها المسلمون بهدف إضعاف المسلمين اقتصادياً وعسكرياً، وهكذا كانت الاكتشافات الجغرافية استمراراً للحروب الصليبية اذ لم تكن هذه الاكتشافات في الشرق إلا حلقة من حلقات تلك الحروب، غير أن تلك الحملة فشلت في تحقيق هدفها إلا أنها اكتشفت طريق رأس الرجاء الصالح[١٠٦] إلى الشرق، مما يعد من أعظم الإنجازات في مجال الريادة والاستكشاف خلال التاريخ البشري كله[١٠٧]. وانطلقت حملة برتغالية جديدة سنة ٩٠٣هـ/١٤٩٧م أعدها ملك البرتغال عمانوئيل الأول (١٤٩٥–١٥٢١م) بقيادة فاسكو دي غاما (Vasco de Gama) الذي عين دياز مساعداً له. وقد وصلت هذه الحملة إلى الهند في سنة ٩٠٤هـ/ أيار من سنة ١٤٩٨م[١٠٨]، وكان شعار البرتغاليين في آسيا "صداقة وود للمسيحيين وحرب لا هوادة فيها مع المسلمين"[١٠٩].

وبعد أن وصل فاسكو دي غاما إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح اضطر السلطان العثماني بايزيد الثاني إلى مراقبة تحركاته، لأن الأسطول البرتغالي أصبح يشكل خطراً حقيقياً على أطراف الجزيرة العربية والأماكن المقدسة في الحجاز[١١٠]. وبذلك انشغل السلطان العثماني عن مد يد العون للمسلمين في الأندلس الذين استغاثوا به بعد سقوط غرناطة في يد الملكين الكاثوليكيين.

---

[١٠٥] القيسي، المجابهة البرتغالية – العثمانية، ج١، ص١٦٣.

[١٠٦] نجح دياز في ارتياد الساحل نحو الجنوب حتى وصل إلى خليج ألجو (Algoa) وسماه (خليج الزوابع). انظر: البطريق ونوار، التاريخ الأوروبي الحديث، ص٥٠–٥١.

[١٠٧] أمين، نظرة جديدة للإنجازات السياسية، دراسات، م ١٥، ع٧، ص٢٦٩.

[١٠٨] المرجع نفسه، ص٢٦٩.

[١٠٩] المرجع نفسه، ص٢٧٤.

[١١٠] حتاملة، الأندلس، ص٩٨٤.

وتذكر بعض المصادر أن الأسطول البرتغالي وصل عام ٩١٠هـ/١٥٠٤م إلى منطقة جدة وموانئ الجزيرة العربية، واحتل في عام ٩١١هـ/١٥٠٦م جزيرة سوقطرة في خليج عدن، وتمكنوا من التسلل سراً إلى الأماكن المقدسة في الحجاز، كما تمكنوا من إغلاق طرق التجارة العربية الإسلامية التي كانت تمر عبر العراق وبلاد الشام[١١١].

وكانت الجهود البرتغالية مسبوقة بمباركة البابوات وتحريضهم، فقد أصدر البابا نيقولا الخامس سنة ١٤٥٤م مرسوماً يعطي لهنري الملاح الحق في غزو جميع الشعوب والأقاليم التي يسودها أعداء المسيح، وأصدر البابا كاليكستوس الثالث سنة ١٤٥٦م مرسوماً مماثلاً، كما أصدر البابا اسكندر السادس سنة ١٤٩٣م ثلاثة مراسيم تأمر البرتغاليين بتحويل المسلمين إلى المسيحية[١١٢]، وكانت البابوية تمنح البرتغاليين جميع الحقوق والامتيازات من مالية وغيرها تشجيعاً لهم على حرب الإسلام والمسلمين.
ويؤكد الروح الصليبية التي انطبعت بها الاكتشافات الجغرافية البرتغالية ما فعله فاسكو دي غاما عندما اشترط على حاكم كاليكوت الهندي لوقف قصف الميناء أن يطرد المسلمين جميعاً ويخرجهم منه[١١٣].

وكان البرتغاليون الصليبيون يعاملون المسلمين حيثما وجدوهم بوحشية وقسوة، فقد اعترضت أساطيلهم سفينة عائدة من الحج إلى الهند قرب ساحل الملبار، وكان على ظهرها (٣٨٠) راكباً، وقصفتها فالتهمتها النيران بمن عليها وبينهم كثير من النساء والأطفال. كما قام فاسكو دي غاما سنة ١٥٠٢م بتدمير وحرق عدد كبير من سفن المسلمين بالقرب من ميناء كاليكوت، وأسر ثمانمائة من رجالها، وعمد إلى قطع أنوفهم وآذانهم وأيديهم، ثم عرضهم في المدينة للفرجة عليهم[١١٤].

واشتدت الهجمة الصليبية البرتغالية ضد المسلمين في الشرق عام ١٥٠٦م، ففي ذلك العالم وصل إلى الهند نائب ملك البرتغال ألفونسو دي البوكيرك (Alfonso de

---

[١١١] ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٢، ص١٥٦، ج٤، ص٨٥، ١٩١.

[١١٢] الصيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، ص٦٦-٦٧.

[١١٣] أمين، نظرة جديدة للإنجازات السياسية، مجلة دراسات، م١٥، ع٧، ص٢٧٤.

[١١٤] المرجع نفسه، ص٢٧٦.

(Albuquerque) وهو يحمل خطة تقضي بسد منافذ التجارة الإسلامية في الخليج العربي والبحر الأحمر[١١٥]، وتنفيذاً لهذه الخطة احتل موقعين استراتيجين هما سوقطرة وهرمز التي تتحكم بمدخل الخليج العربي[١١٦]. وكان الهدف الرئيسي من سيطرة البرتغاليين على الخليج هو نقل التجارة من الهند والمراكز التجارية في آسيا إلى لشبونة لحرمان المسلمين من الأرباح التي يجنونها عن طريق قيامهم بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب. ومن الوسائل التي اتبعها البرتغاليون لتحقيق هذه الغاية إجبارهم التجار المسلمين على شراء السلع بالأسعار التي يحددها البرتغاليون، وعلى بيع سلعهم بالأسعار التي يحددونها أيضاً[١١٧].

وظل البرتغاليون يسيطرون على تجارة الشرق، ويكيلون للمسلمين الضربات حتى أوائل القرن السابع عشر الميلادي حيث ضعفوا وحل محلهم صليبيون آخرون قدموا من أوروبا، وخاصة الإنجليز والهولنديين.

واختلفت أساليب الإنجليز والهولنديين في السيطرة على تجارة الشرق عن أساليب البرتغاليين، إذ لم يعمدوا إلى إرسال الأساطيل الحربية إلى الشرق، وإنما إلى تأسيس شركات احتكارية، وكانت هذه الشركات "تؤسس بموجب امتياز خاص من إحدى الحكومات، تخول تلك الحكومة بموجبه جماعة من رعاياها دون سواهم حق احتكار تجارة بلد ما في منطقة معينة من العالم، ويحق للشركة صاحبة الامتياز عادة ممارسة صلاحية واسعة في مجال الدفاع والإدارة والقضاء على رعايا بلدها في منطقة امتيازها. ولها الحق المطلق تقريباً في منع أي من أولئك الرعايا من ممارسة التجارة إلا بموافقتها وتحت إشرافها. وخولت الشركات صلاحية إقامة العلاقات مع الحكام والملوك في الشرق في منطقة الامتياز، وهي التي تتفاوض معها، وتعقد المعاهدات، وتتسلم البراءات والفرمانات، بل وتشن الحروب، وتعقد الصلح، فقد كان لها جيوشها الخاصة بها ومواقعها

---

[١١٥] الصيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، ص١١٧؛ الحمداني، دور عرب عُمان في إقصاء البرتغاليين عن الخليج العربي، ص٢٧٠.

[١١٦] الحمداني، طارق، دور عرب عُمان، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية، ع١٣، ١٩٨٤م، ص ٢٧٠.

[١١٧] آل خليفة، التأثير البرتغالي على التجارة، ص٥٢١.

وقلاعها وأساطيلها"[118]. ويعني منح الامتياز وفقاً لذلك أن الشركة بما تتمتع به من صلاحيات إنما كانت ذراعاً قوية سياسياً وعسكرياً واقتصادياً للدولة التي منحتها الامتياز.

وتمثل شركة الهند الشرقية الإنجليزية التي حصلت على امتياز من الملكة إليزابيث الأولى بتاريخ ١٦٠٠/١٢/٣١م[119] ذراع إنجلترا القوية في الشرق، وقد تمكنت بمرور الوقت من تأسيس الإمبراطورية البريطانية في الهند، وبذلك ساهمت بفعالية في إضعاف التجارة الإسلامية في البلدان الواقعة إلى الشرق من رأس الرجاء الصالح[120].

وتزامن مع ظهور شركة الهند الشرقية الإنجليزية ظهور شركة الهند الشرقية الهولندية التي منحتها الحكومة الهولندية في سنة ١٦٠٢م امتيازاً أعطاها: "حق اتخاذ الإجراءات الكفيلة بردع أي معاملة سيئة يتعرض لها الهولنديون أو كل غش أو خداع يلقونه. كما خُولت حق عقد معاهدات مع الحكام في الشرق باسم الحكومة الهولندية، وبناء القلاع، وتعيين الحكام والقضاة في المواقع التابعة، وتطبيق القانون، وتوفير النظام في تلك المناطق"[121].

وقد تحالفت الشركتان الإنجليزية والهولندية في شن هجمتهما الصليبية التجارية ضد تجارة المسلمين في الشرق، كما وحدتا جهودهما ضد الوجود البرتغالي في الخليج العربي، وتمكنتا من فرض نفوذهما هناك منذ عام ١٦٢٥م[122].

وكان الهولنديون يلجأون إلى القوة العسكرية للحصول على المزيد من الامتيازات التجارية في منطقة الخليج العربي، ومن ذلك ما فعلوه عام ١٦٤٥م حيث أرسلوا أسطولاً كبيراً قصف جزيرة قشم (Qishm) في الخليج مما أدى إلى منحهم حق المتاجرة في بلاد فارس الإسلامية دون منافس[123].

---

[118] أمين، دراسات في النشاط التجاري، ص٨٥.

[119] المرجع نفسه، ص٥٠.

[120] المرجع نفسه، ص٥٤.

[121] قلعجي، الخليج العربي، ص٣٨٤-٣٨٥.

[122] محمد، القواسم – نشاطهم البحري وعلاقاتهم بالقوى المحلية والخارجية ١٧٤٧-١٨٥٣م، ص١٦.

[123] أمين، المصالح البريطانية، ص١٨-١٩؛ محمد، القواسم، ص١٨.

وبينما كان المسلمون في المشرق الإسلامي يتعرضون لهذه الهجمة الصليبية الاقتصادية كان المسلمون في الأندلس يتعرضون لهجمة صليبية ربما كانت الأفظع في تاريخهم كله، فبعد سقوط غرناطة في أيدي الملكين الكاثوليكيين، تنكرا لاتفاقية تسليمها، واتخذا قراراً في مدينة شنتفي في الرابع والعشرين من تشرين الأول عام ١٥٠٠م بأن يقوم الكهان والقساوسة والرهبان بالتبشير بالديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي، وإذا لم ينجح ذلك في تنصير المسلمين يجب أن يتم تنصيرهم قسراً. ولهذه الغاية كان النصارى يأخذون الأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين ٥-١٢ سنة ليربوهم تربية خاصة في المعاهد المسيحية، ويلقنوهم النصرانية، ويزرعوا في قلوبهم التعصب المقيت ضد ذويهم المسلمين[١٢٤].

وفي إطار التنصير القسري تم تحويل مسجد غرناطة الجامع إلى كنيسة، كما تم تنصير أكثر من خمسين ألف مسلم في مدينة غرناطة وضواحيها[١٢٥]. وعندما أصر بعض المسلمين على البقاء على دينهم وإن سراً تُرك أمرهم لمحاكم التفتيش[١٢٦] المرعبة، فقد عملت هذه المحاكم على اجتثاث الشعائر الإسلامية القائمة، ودفع أولئك المسلمين الذين أطلق عليهم اسم (الموريسكيون) إلى الاندماج التام في الإيمان الكاثوليكي. وكانت لتلك المحاكم سجون عميقة مظلمة رطبة تغص بالحشرات والجرذان، وكان المتهمون من المسلمين يلقون فيها مصفدين بالأغلال الحديدية الثقيلة[١٢٧]. وكل من تتم إدانته من هؤلاء، وغالباً ما يدانون، يؤخذ لينفذ فيه حكم الموت حرقاً بالنار، وذلك بعد أن يخضع لسلسلة من الوسائل التعذيبية التي تقشعر لها الأبدان[١٢٨]. وتذكر بعض الإحصائيات أن الذين وقعوا ضحايا لمحاكم التفتيش من مسلمين وغيرهم من الذين لم يتبعوا المذهب

---

[١٢٤] حتاملة، الأندلس، ص٦٧١-٦٧٢.

[١٢٥] المرجع نفسه، ص٦٨٨.

[١٢٦] انظر التفاصيل حول نشأة محاكم التفتيش ودورها في: حتاملة، المرجع نفسه، ص١٠٩٠ وما بعدها.

[١٢٧] عنان، نهاية الأندلس، ص٣١٧؛ حتاملة، الأندلس، ص١١٢٤.

[١٢٨] عنان، نهاية الأندلس، ص٣٢٠؛ مظهر، محاكم التفتيش، ص٥٤؛ حتاملة، الأندلس، ص١١٢٩ وما بعدها.

الكاثوليكي بلغ عددهم خلال نحو خمسة قرون (١٣٣٣-١٨٣٥م) نحو تسعة ملايين شخص[١٢٩].

وبالوتيرة نفسها التي استمرت فيها الهجمة الصليبية ضد مسلمي الأندلس استمرت أيضاً ضد مسلمي المشرق. ولم تكن حملة نابليون بونابرت ضد الأمة العربية الإسلامية عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م سوى حلقة في هذه السلسلة التي جسدها نداء المؤرخ العنصري أرنست رينار عام ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م: "إن الشرط الأساسي لإقامة الحضارة الأوروبية هو تدمير الانتماء إلى الإسلام. هنا الحرب الأبدية، الحرب التي لن تنتهي إلا حين يموت آخر أبناء إسماعيل من البؤس، ويطرحه الرعب في عمق الصحراء...إن الإسلام هو النفي الكامل لأوروبا، إن أوروبا سوف تغزو العالم وتنشر دينها الذي هو القانون والحرية واحترام الناس"[١٣٠].

وهكذا فإن الحرب التي أرادها الصليبيون إنما هي حرب حضارة ضد حضارة الإسلام، وقد تأججت هذه الحرب منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادي حيث وُضع تمجيد الحملات الصليبية في خدمة السياسة الاستعمارية التي انتهجتها الدول الأوروبية ضد المسلمين[١٣١]. وفي أواخر القرن المذكور برزت الحركة الصهيونية بظهور الصحفي النمساوي اليهودي ثيودور هرتزل الذي نشر كتابه المشهور (الدولة اليهودية) في عام ١٨٩٦م، ذلك الكتاب الذي ساهم في إحياء الشعور القومي اليهودي مما أدى إلى عقد المؤتمر الصهيوني الأول في بال بسويسرا عام ١٣١٥هـ/١٨٩٧م حيث وضع الأساس لبناء دولة يهودية كانت بمثابة رأس حربة غرسها الصليبيون في قلب العالم العربي الإسلامي لتمزيق أوصاله من جديد[١٣٢].

لقد عقد عدد من الدول الأوروبية هي بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا وإسبانيا والبرتغال وإيطاليا مؤتمراً في لندن عام ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م بدعوة من السير هنري كامبل

---

[١٢٩] مظهر، محاكم التفتيش، ص٥٤.

[١٣٠] النجاني، المدخل إلى النظام السياسي الأردني، ص٣٠.

[١٣١] زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص٣٤٤؛ النجاني، النظام السياسي، ص٣١.

[١٣٢] الهداوي، الصهيونية بين الدين والسياسة، ص١٦.

بترمان، رئيس وزراء بريطانيا آنذاك، وتدارست هذه الدول سبل الحفاظ على شمس الحضارة الغربية من الأفول، ولتحقيق هذه الغاية أوصى المؤتمر بالعمل على تجزئة المنطقة العربية الإسلامية الممتدة من المحيط إلى الخليج، وعلى تجهيل هذه المنطقة لإبقائها على قدر كبير من التخلف، وزرع إسرائيل فيها لتفصل آسيا العربية عن إفريقيا العربية[١٣٣].

واستغلت الدول الاستعمارية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) لوضع توصيات مؤتمر لندن موضع التنفيذ، فقد اتفقت على تجزئة الوطن العربي الذي كان خاضعاً للدولة العثمانية، وتقاسمته فرنسا وبريطانيا[١٣٤]، وأصدر وزير خارجية بريطانيا بلفور وعده في الثاني من تشرين الثاني عام ١٩١٧م بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين[١٣٥].

وحقيقة وعد بلفور هي أنه لا يتجاوز إجراء حربياً صليبياً ضد المسلمين وحضارتهم، فهذا الوعد ما كان ليصدر لو لم تكن هناك قناعات راسخة لدى بريطانيا بأن مصالحها تتطلب إصداره، وأن الرغبة في الأمن الاستراتيجي لإمبراطوريتها تقتضي ذلك. وبالتالي فإن إصدار وعد بلفور كان جزءاً من مخططات دولة استعمارية كبرى للحفاظ على مصالحها الحيوية ضمن صراعاتها على الساحة الدولية، وللحصول على دعم سياسي وعسكري أمريكي لمجهودات الحرب[١٣٦].

ولم يكن وعد بلفور قراراً بريطانياً صرفاً، وإنما كان قراراً صليبياً بكل ما تعنيه الكلمة من مضمون، فمع أن بريطانيا هي الدولة التي تبنت عملية إصدار الوعد، إلا أنه صدر بمعرفة فرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية وموافقتها، يدل على ذلك مسارعة تلك الدول إلى تأييده خلال فترة وجيزة من إصداره[١٣٧].

---

(١٣٣) الهزايمة، الأيديولوجيا والسياسة الخارجية، ص٨٦-٨٧.

(١٣٤) الدجاني، النظام السياسي، ص٣٩.

(١٣٥) المرجع نفسه، ص٦١ وما بعدها.

(١٣٦) الدجاني، النظام السياسي، ص٧١.

(١٣٧) المرجع نفسه، ص٧٣.

وإذا كانت لبريطانيا مصلحة استراتيجية في زرع (إسرائيل) في قلب الوطن العربي، ولفرنسا وإيطاليا وغيرهما من دول أوروبا مصلحة مماثلة، فإن للولايات المتحدة الأمريكية أيضاً مصلحة لا تقل أهمية، فالموضوع لا يتعلق بحب الغرب الصليبي لليهود، وحرصه انطلاقاً من هذا الحب الجارف على تأمين وطن لليهود، فهذا الحب لم يكن موجوداً على الإطلاق، والأمر في هذا الشأن لا يحتاج إلى دليل، فالكراهية المطلقة تجاه اليهود هي التي كانت موجودة لدى الغرب النصراني بأسره، وقلوب الصليبيين كانت على الدوام مفعمة بكراهية اليهود حيثما وجدوا، وأينما حلوا إلا في ديار الإسلام. وإذا كان تفصيل ذلك يُخرج هذه الدراسة عن إطارها، فلا أقل من إدراج دليل على كراهية الولايات المتحدة الأمريكية لليهود، تلك الدولة الكبرى التي تحتضن إسرائيل اليوم لغاية في نفسها، وهي غاية صليبية مقيتة.

وتتلخص غاية الولايات المتحدة الأمريكية في تنفيذ وصية الفيلسوف الأمريكي بنيامين فرانكلين (١٧٠٦-١٧٩٠م) الذي يعد من أعظم الرجال وأقدرهم في الولايات المتحدة، ومن الإصلاحيين العظام في العالم الحديث. وقد كان خبيراً باليهود، مدركاً لخطرهم على الغرب وحضارته، مما دفعه إلى توجيه النصيحة التالية لقادة بلاده:

"هناك خطر كبير على الولايات المتحدة، ويتمثل هذا الخطر باليهود، ذلك لأنهم إذا استقروا بأي أرض فإنهم يحطمون المستوى الأخلاقي، ويحطون من قدر وأمانة المستوى التجاري. ولقد ظلوا يعيشون في أي مجتمع غير مهضومين، بل ومضطهدين، إنهم يحاولون خنق الأمم مالياً كما كان الحال في إسبانيا والبرتغال"[١٣٨].

وقد وصف بنيامين فرانكلين اليهود بأنهم مصاصو دماء، وبأنهم لا يستطيعون العيش إلا على غيرهم. وأخذاً بنصيحة فرانكلين أصدر المؤتمر الدستوري الأمريكي لعام ١٧٨٧م توصية جاء فيها[١٣٩]:

---

[١٣٨] مايكل د.ب.، الأسرار المذهلة للكارثة الفلسطينية، ص٤.

[١٣٩] المرجع نفسه، ص٥.

"إذا لم يطرد اليهود خلال (٢٠٠) عام فإن أولادنا سوف يعملون في الأراضي والحقول لمدهم بالغذاء بينما هم يقبعون في بيوتهم يعدون أموالهم، ويفركون أيديهم ابتهاجاً وفرحاً".

وجاء ختام تلك التوصية التي اقترحها فرانكلين نفسه على شكل إنذار من مغبة عدم طرد اليهود من الولايات المتحدة الأمريكية:

"إنني أنذركم أيها السادة إذا لم تطردوا اليهود وإلى الأبد فإن أولادكم وأولاد أولادكم سوف يلعنونكم في قبورهم. إن مثلهم وتصوراتهم تختلف عن مثلنا وعقليتنا حتى لو أقاموا بين ظهرانينا أجيالاً طويلة، ذلك لأن الفهد لا يستطيع أن يغير بقع جلده. إنهم سوف يعرضون للخطر والهلاك جميع مؤسساتنا، ولذلك يجب طردهم من البلاد".

وغني عن القول أن الولايات المتحدة قد عجزت عن اقتلاع اليهود من أرضها لأسباب معروفة، أبرزها أنهم تمكنوا من التغلغل فيها تغلغلاً سرطانياً واسع الانتشار، يصعب القضاء عليه، ولكنها استغلت إنشاء الوطن القومي لهم في قلب العالم العربي، فدعمته لا حباً بهم، ولكن كراهية لنا، وإبقاءً على ما نحن فيه من تفكك وضعف لن تقوم لنا معهما قائمة، وفي ذلك ما يعزز تحقيق الأهداف الصليبية للغرب النصراني.

لقد نجح الغرب النصراني نتيجة للحرب العالمية الأولى في تقسيم البلاد العربية إلى وحدات سياسية صغيرة، تمثلت في هذا العدد الكبير من الدويلات التي لم تختلف من حيث العدد، ومن حيث التنافس فيما بينها، عن تلك الدويلات التي أقامها ملوك الطوائف في الأندلس في أعقاب انهيار الخلافة الأموية فيها، وهذا التنافس كثيراً ما اشتد وزادت سخونته إلى درجة الاشتعال بين الدويلات المتجاورة دون أن تدرك هذه الدويلات ما حاكه لها الاستعمار من دسائس، أو تدرك حقيقة الأسافين التي دقتها بين مناطق الشعب العربي الواحد. ولم تفلح جهود شريف مكة الحسين بن علي في انتزاع وفاء بالوعد الذي قدمه له الحلفاء بتأمين استقلال البلاد العربية ووحدتها تحت رايته ثمناً لاشتراكه في الحرب إلى جانبهم ضد الدولة العثمانية[١٤٠].

---

(١٤٠) الدجاني، المدخل إلى النظام السياسي، ص٤١-٤٢؛ سليمان موسى، من تاريخنا الحديث، ص٣٩.

وكان الغرب النصراني وراء إفشال جميع المشاريع الوحدوية التي نادى بها بعض العرب ودعوا إلى تحقيقها، مثل مشروع سوريا الكبرى أو مشروع الوحدة السورية الذي دعا إليه الأمير الهاشمي عبد الله بن الحسين بن علي[١٤١]، ومشروع الهلال الخصيب الذي نادى به نوري السعيد[١٤٢]، فقد حاربت بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وغيرهما من دول الغرب كل شكل من أشكال الوحدة أو الاتحاد بين الدويلات العربية. وبدلاً من ذلك أيدت الدول الاستعمارية إنشاء الجامعة العربية كبديل للوحدة[١٤٣]، ووجهت الوفود العربية التي كانت تجتمع في القاهرة للتشاور في إنشاء الجامعة إلى تجاوز التفكير في الوحدة أو الاتحاد، وأن تركز فقط على هدف واحد هو تجميع الدول العربية تحت مظلة واحدة ليسهل بسط النفوذ عليها[١٤٤].

وهنا لا بد من التذكير بما قاله الأمير عبد الله بن الحسين في مذكراته عن الجامعة العربية، فقد قال: "الجامعة العربية صوت فاه به نوري السعيد، وتلقفه مصطفى النحاس، وأيده المستر (أنتوني إيدن)، فهي جراب أدخل فيه سبعة رؤوس: اليمن والعراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن بسرعة عجيبة، في وقت كانت فيه سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، وشرق الأردن تحت الانتداب البريطاني، ومصر والعراق تحت المعاهدتين الساريتين إلى الآن. فالدول العربية كانت حينذاك في قيود انتدابية وعهدية ما عدا اليمن ونجد فإنهما كانتا حرتين. وفي هذا يتجلى للأمة العربية التسابق العجيب بين دولها السبع، تسابق بين مقيد ومطلق، إما قيد احتلال، أو قيد عهد، وإما قيد جهالة...وظن الغريب الراضي عن هذه الجامعة أنها ستكون خير أداة لدوام الانتداب، ودوام الأحكام العهدية، وإني تارك لغيري تفسير هذه الظنون"[١٤٥].

---

[١٤١] انظر حول هذا المشروع: عبد الله بن الحسين، الآثار الكاملة، ص٢٠٤، ٢١١-٢١٨؛ محافظة، العلاقات الأردنية البريطانية، ص١٢١؛ هلال، أمريكا والوحدة العربية، ص٦٩.

[١٤٢] هلال، أمريكا والوحدة العربية، ص٦٤؛ الروسان، العراق وقضايا الشرق العربي، ص٨٥ وما بعدها؛ صالح، العراق والوحدة العربية، ص٧٨ وما بعدها.

[١٤٣] الغنيمي، جامعة الدول العربية، ص١٨؛ روجيه أوين، القومية العربية، مجلة شؤون عربية، ص ١٤٨؛ هلال، أمريكا والوحدة العربية، ص٤٠، ٦٣.

[١٤٤] الشقيري، الجامعة العربية، ص٩٨-٩٩.

[١٤٥] عبد الله بن الحسين، الآثار الكاملة، ص٢٣٧-٢٣٨.

وكانت كل دولة من دول الجامعة عندما أنشئت مرتبطة بدولة من دول الاستعمار الصليبي لا تمكنها من التصرف خارج الالتزامات المتعهدة بها(١٤٦).

والحقيقة أن إنشاء الجامعة العربية كان وبالاً على آمال هذه الأمة في الوحدة، وهو ما سعت دول الغرب الصليبي إلى تكريسه، فقد أوجدت في كل قطر من الأقطار العربية ظروفاً خاصة مختلفة عن ظروف القطر الآخر، ثم عملت على تكريس الولاء الوطني الذي أصبح بمرور الزمن له الأولوية على الولاء الإقليمي أو القومي.

ولم تتوقف الهجمة الصليبية على الأمة العربية التي أصبحت ممزقة في أعقاب الحربين الكونيتين الأولى والثانية، وفي أعقاب إنشاء الجامعة العربية التي كرست التجزئة والتمزق، وأصبحت هذه الهجمة المتكررة تتم عبر إسرائيل أو بوساطتها، وتتم عبر الضغط الاقتصادي، وعبر الضغط العسكري باستخدام القوة المسلحة بشكل مباشر، ومن ذلك حرب السويس التي بدأتها إسرائيل ضد مصر في التاسع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٥٦م(١٤٧).

وكانت أزمة السويس فقد تفاقمت إثر تأميم مصر لشركة قناة السويس في ٢٦ تموز عام ١٩٥٦م، وسببها قيام الدول الغربية بسحب عروض كانت قد تقدمت بها لتمويل بناء السد العالي في جنوبي مصر(١٤٨). فقد دفع ذلك الرئيس المصري جمال عبد الناصر إلى إصدار مرسوم بتأميم الشركة، ومصادرة ممتلكاتها وحقوقها وامتيازاتها، مما شكل ضربة موجعة لحكومة بريطانيا التي شعرت بضرورة الرد عليها حفاظاً على مصالحها ونفوذها(١٤٩). ولرد الضربة الموجعة خططت بريطانيا لاحتلال القاهرة، وعقدت مع الفرنسيين والإسرائيليين اجتماعاً سرياً في باريس في ٢٤ تشرين الأول عام ١٩٥٦م لإعداد خطة الهجوم على مصر على أن تبدأه إسرائيل مما يعطي الإنجليز والفرنسيين

---

(١٤٦) عبد الله بن الحسين، الآثار الكاملة، ص٢٣٩.

(١٤٧) محافظة، العلاقات الأردنية – البريطانية، ص٢٥٩؛ الدجاني، المدخل إلى النظام السياسي، ص ١١٦.

(١٤٨) الفلايلة، الاستراتيجية الأردنية، ص٢٩٧؛ الدجاني، المدخل إلى النظام السياسي، ص١١٣.

(١٤٩) الدجاني، المدخل إلى النظام السياسي، ص١١٣–١١٤.

ذريعة للتدخل[١٥٠]. وقد بدأت إسرائيل هجومها بالفعل في الموعد المتفق عليه مسبقاً وهو ٢٩ تشرين الأول، وفي اليوم التالي أنذرت بريطانيا وفرنسا مصر وإسرائيل بوقف الحرب، وقامت القوات البريطانية والفرنسية المحتشدة في قبرص باحتلال مدن السويس والإسماعيلية وبور سعيد بحجة تأمين الملاحة في القناة[١٥١]. غير أن الولايات المتحدة الأمريكية بادرت إلى استخدام قوتها الاقتصادية لإرغام بريطانيا وحليفتيها على الانسحاب من منطقة السويس مما أدى إلى وقف العملية[١٥٢]. والجدير بالذكر هنا أن موقف الولايات المتحدة المناهض لعملية السويس التي استهدفت احتلال القاهرة، وإسقاط الرئيس جمال عبد الناصر لم تقفه حباً بالعرب، وحرصاً على مصالحهم، وإنما وقفته لأن ذلك يتعارض مع مصالحها في المنطقة، خاصة أنها في ذلك الوقت أصبحت مهيأة لتزعم العالم الغربي بما أحرزته من تقدم في المجالات الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية والعسكرية.

وكان من أهم نتائج حرب السويس أن بدأ السعي الأمريكي للحلول مكان البريطانيين والفرنسيين في المنطقة العربية، هذه المنطقة التي انتهت بفعل الهجمات الصليبية السابقة إلى الانقسام على نفسها، والتباعد عن بعضها حيث تمحورت دويلاتها في معسكرين متناقضين، جمع الأول مصر والسودان واليمن والجزائر، ووصف نفسه بأنه (ثوري) أو (تقدمي)، وضم الثاني السعودية والأردن وليبيا والكويت وإمارات الخليج العربي وتونس والمغرب، وقد وصفه الآخرون بأنه: (محافظ) أو (رجعي). وبينما خضع المعسكر الأول لنفوذ الاتحاد السوفييتي خضع المعسكر الثاني لنفوذ الولايات المتحدة. وأدى النفوذ الاستعماري الصليبي إلى زعزعة الاستقرار في المنطقة، حيث قامت محاولة انقلاب في الأردن عام ١٩٥٧م، واشتعلت حرب أهلية في لبنان في أيار ١٩٥٨م، ووقع انقلاب عسكري في العراق في تموز ١٩٥٨م. ونتيجة لهذه الأحداث تم إنزال قوات عسكرية أمريكية في لبنان وقوات بريطانية في الأردن[١٥٣].

---

[١٥٠] النجاني، المدخل إلى النظام السياسي ، ص١١٦.

[١٥١] الخلايلة، الاستراتيجية الأردنية، ص٢٩٩.

[١٥٢] النجاني، المدخل إلى النظام السياسي، ص١١٦.

[١٥٣] المرجع نفسه، ص١٢١.

وبدأت الحرب الصليبية ضد الأمة العربية الإسلامية تنفذ منذ أوائل الستينيات من القرن العشرين بوساطة إسرائيل التي أخذت تشن الحروب ضد الأمة بدعم سياسي وعسكري لا حدود له من قبل الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية. وفي هذا الإطار شنت إسرائيل الحرب ضد العرب في ٥ حزيران ١٩٦٧م، وحطمت الجبهات الأردنية والمصرية والسورية، واحتلت مناطق شاسعة من أراضي هذه الدول[١٥٤]. وأقامت الولايات المتحدة الأمريكية جسراً جوياً لنقل الذخائر والإمدادات إلى القوات الإسرائيلية في حرب تشرين الأول عام ١٩٧٣م مما حال دون إلحاق هزيمة ماحقة بها في تلك الحرب[١٥٥]. وبذلك أثبتت هذه الحرب مدى الارتباط الوثيق بين المصالح الغربية والأهداف الإسرائيلية، كما أثبتت عدم قدرة إسرائيل على الصمود بغير الدعم الصليبي لها.

فخ الســــــلام

أدى الدعم الأمريكي لإسرائيل والتزام الولايات المتحدة المطلق بأمنها من جهة، وتمزق العالم العربي وعدم قدرته على النهوض والتنسيق الحقيقي بين أقطاره من جهة أخرى إلى الرضوخ لهجمة صليبية من نوع جديد، هي هجمة السلام. فقد تم استدراج الدول العربية إلى هذا الفخ حيث دعيت للاستجابة إلى إعلان كارتر – بريجينيف الذي أطلق بشأن الشرق الأوسط في الأول من تشرين الأول عام ١٩٧٧م، وتتلخص بنوده في[١٥٦]:

- انسحاب إسرائيل من الأراضي العربية التي احتلتها عام ١٩٦٧م.
- حل المشكلة الفلسطينية بما يضمن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني.
- إنهاء حالة الحرب بين إسرائيل والدول العربية المجاورة وإقامة علاقات طبيعية على أساس الاعتراف المتبادل بالسيادة والحدود والاستقلال السياسي.

---

[١٥٤] سليمان موسى، تاريخ الأردن في القرن العشرين، ص١٣٨؛ الخلايلة، الاستراتيجية الأردنية، ص ٥٠٢ وما بعدها.

[١٥٥] رفعت وحمودة، المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، ص١١٤؛ أحمد عبد الرحيم، الحرب القادمة مع إسرائيل، ص٤٣.

[١٥٦] عريقات، السلام على السلام، ص٤٧–٤٨.

- تقديم ضمانات دولية بمشاركة الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي للتأكد من تطبيق اتفاق السلام.

وكان رئيس مصر أول الواقعين في فخ السلام الذي نصبته أمريكا، فقد زار إسرائيل في ١٨ تشرين الثاني عام ١٩٧٧م، وأسفرت مباحثاته مع الإسرائيليين والأمريكيين عن توقيع اتفاقية في كامب ديفيد في الولايات المتحدة بين مصر وإسرائيل، ثم توقيع معاهدة صلح بينهما في واشنطن في ٢٦ آذار عام ١٩٧٩م[١٥٧].

وكانت معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل كارثة على مصر وعلى الشعب الفلسطيني والأمة العربية، فقد عزلت مصر بثقلها السياسي والعسكري والبشري عن الصف العربي، وعززت أمن إسرائيل، وأصابت الدول العربية الأخرى بالإحباط والقنوط[١٥٨].

وعندما انتكست عملية السلام إثر اغتيال السادات في ٦ تشرين الأول عام ١٩٨١م بادر الرئيس الأمريكي رونالد ريغن إلى تنشيطها بإطلاق خطة عرفت بخطة ريغن للسلام، ومن أهم ما تضمنته: منح الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة حكماً ذاتياً، وعدم تأييد ضم إسرائيل للأراضي المحتلة، ووجوب حل النزاع العربي الإسرائيلي من خلال المفاوضات، والتزام الولايات المتحدة بأمن إسرائيل[١٥٩].

---

[١٥٧] مؤسسة الدراسات الفلسطينية، المعاهدة المصرية الإسرائيلية، ص٣-٨.

[١٥٨] كامل، السلام الضائع، ص٥٨٤؛ الحسن بن طلال، السعي نحو السلام: ١٣١.

[١٥٩] المدفعي، الأردن وحرب السلام، ص١٨٨-١٨٩؛ الهور والموسى، مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية، ص٢١٦.

وقد رفضت إسرائيل خطة ريغان للسلم كما رفضتها الدول العربية، وأدى ذلك إلى قيام الأمم المتحدة بالدعوة إلى عقد مؤتمر دولي للسلام في الشرق الأوسط على أساس الشرعية الدولية المتمثلة في قراري مجلس الأمن (٢٤٢) و (٣٣٨)[١٦٠]. غير أن الولايات المتحدة وإسرائيل وضعتا شروطاً لعقد المؤتمر لم تقبل بها الدول العربية مما أدى إلى فشل الجهود الكبيرة التي بذلت لعقده[١٦١].

---

[١٦٠] الحمد، المؤتمر الإقليمي للسلام، ص٤٩.

[١٦١] المرجع نفسه، ص٥٠.

عولمة الحرب الصليبية
ضد المسلمين

شكلت أزمة الخليج التي نجمت عن احتلال العراق للكويت في الثاني من آب عام ١٩٩٠م فرصة ذهبية أمام الغرب من أجل شن هجمة صليبية عسكرية ساحقة ليس ضد العراق وحسب، وإنما ضد الأمة العربية جمعاء. فبحجة إخراج العراق من الكويت قامت الولايات المتحدة بحشد الأساطيل والجيوش الغربية من نحو ثلاثين دولة، وقادتها لضرب العراق، ووأد نهضته الواعدة في المجالين العلمي والعسكري، خاصة أنه كان من أعتد المعادين لمشاريع التسوية السلمية مع إسرائيل، ومن أقوى المرشحين لامتلاك القوة العسكرية المهددة لأمنها. وقد تمكنت تلك القوة الصليبية الهائلة بضربها العراق من تحقيق عدة أهداف: فقد أحدثت شرخاً جديداً بين أبناء الأمة العربية الواحدة باستقطاب بعض الدول العربية إلى جانبها ضد بعضها الآخر، ودمرت الآلة العسكرية العراقية مجربة في ذلك أنواعاً من الأسلحة المحرمة دولياً، وسيطرت على منابع النفط بشكل مباشر.

ومن جهة أخرى كانت عملية إخراج العراق من الكويت التي أطلق عليها الغرب اسم (عاصفة الصحراء) إنما هي في الحقيقة عاصفة من اليورانيوم المنضب الذي أطلقته القوات الغربية في الكويت وشمالي السعودية وجنوبي العراق ليفتك بالأخضر واليابس، ويحول الحياة إلى أشلاء في مناطق واسعة من وطننا العربي. فقد ألقت الولايات المتحدة أكثر من ٣٠٠ طن من اليورانيوم المنضب على العراق، وتأثر بهذا السلاح المدمر العراقيون والأمريكيون والبريطانيون والكنديون والكويتيون والسعوديون على حد سواء، حيث انتشرت أمراض لم نسمع بها من قبل، ومنها مرض حرب الخليج الذي فتك حتى بالأعداء أنفسهم.

وقد كانت النتيجة الحتمية لإخراج العراق من معادلة القوة بين العرب وإسرائيل، ومن قبل ذلك إخراج مصر هي رضوخ بقية العرب للهجمة الصليبية السلمية التي استهدفت فرض الاستسلام على العرب لصالح الغرب الصليبي ممثلاً بربيبته إسرائيل. ذلك أن تسلسل الأحداث قاد إلى مدريد ومن ثم إلى أوسلو، فقد أثارت أزمة الخليج موضوع الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة، والربط بين تطبيق الشرعية

الدولية على العراق وعلى إسرائيل، وتعالت الأصوات المنددة بأمريكا متهمة إياها بأنها تكيل بمكيالين[١٦٢].

والحقيقة أن السياسة الانتقائية التي اتبعها الغرب الصليبي، وعلى رأسه الولايات المتحدة لم تكن خافية على أحد، فالغرب كان إصراره ولا يزال عجيباً على تطبيق قرارات الأمم المتحدة، واستخدام القوة العسكرية لتطبيقها إذا كانت تلك القرارات تخدم مصالحه، وإن لم تكن كذلك فهو يتغاضى عنها، ولا يقيم لها وزناً، فقد بادر الغرب بقضه وقضيضه لضرب العرب، بينما وقف دائماً ضد أي قرار يصدر بمجرد إدانة إسرائيل. ويتجلى هذا أيضاً في موقف الولايات المتحدة إزاء عملية السلام بين العرب وإسرائيل، فالولايات المتحدة بدلاً من أن تجبر إسرائيل على تطبيق قرارات الشرعية الدولية، ومبدأ الأرض مقابل السلام الذي تبناه العرب، وقفت إلى جانب إسرائيل سواء في تفسيرها المغلوط لقرارات الأمم المتحدة، أم في تعنتها إزاء تطبيقها، أم في تجيير هذه القرارات لصالحها.

لقد أعلن الرئيس الأمريكي جورج بوش بعد انتهاء حرب الخليج مباشرة، أي في ٦ آذار عام ١٩٩١م[١٦٣] أن الوقت قد حان لوضع حد للنزاع العربي الإسرائيلي على أساس قراري مجلس الأمن (٢٤٢) و(٣٣٨) ومبدأ الأرض مقابل السلام، ولكن شريطة ضمان أمن إسرائيل. وعمل جيمس بيكر وزير الخارجية الأمريكي على إقناع الأطراف المعنية بضرورة حضور مؤتمر للسلام يعقد بتاريخ ٣٠ تشرين الأول عام ١٩٩١م في مدريد[١٦٤]، ولم يكن باستطاعة أي من الدول العربية التأخر عن حضور هذا المؤتمر، أو حتى إبداء الرغبة في عدم حضوره والمشاركة في أعماله، لأنها لو فعلت ذلك فإنها ستتعرض لغضب زعيمة العالم أمريكا وعقوباتها عبر صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية ومنظمة حقوق الإنسان، ذلك أن هذه المؤسسات أصبحت أذرعاً أخطبوطية طويلة تسيطر عليها الولايات المتحدة، وتحصل بوساطتها على ما تريد من جميع دول العالم، خاصة العالم العربي.

---

[١٦٢] سالنجر، حرب الخليج، ص٢٣٥-٢٣٦.

[١٦٣] الحمد، عملية السلام في الشرق الأوسط، ص٢١.

[١٦٤] المدفعي، الأردن وحرب السلام، ص٣٠٢-٣٠٣.

لقد وقف جيمس بيكر في مؤتمر مدريد ليعلن أن الولايات المتحدة لن تقبل عذراً من أحد، وعلى الجميع المشاركة والحضور. وأمام هذا الإعلان المبطن بالتهديد والوعيد سارع الكل للمشاركة في المؤتمر الذي تمخضت عنه فيما بعد جميع الاتفاقيات ومشاريع التسوية بين العرب وإسرائيل، ورفعت أعلام إسرائيل في أغلب العواصم العربية[١٦٥].

لقد كان مؤتمر مدريد أول خطوة على طريق التصالح بين العرب والإسرائيليين، وبدأ أعماله بتاريخ ٣٠ تشرين الأول عام ١٩٩١م لغايات إحلال السلام في الشرق الأوسط، وافتتح محادثات المؤتمرين فيليب جونزاليس رئيس وزراء إسبانيا، برعاية الرئيس الأمريكي جورج بوش والرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشوف. وجرت جلسات المؤتمر برئاسة جيمس بيكر وزير الخارجية الأمريكي وبوريس بانكين وزير الخارجية السوفياتي اللذين تصدرا مائدة المفاوضات، وشارك في أعمال المؤتمر مصر ولبنان وإسرائيل وسوريا والأردن وفلسطين، وقد تمكن المؤتمر من تحطيم أقوى المحرمات في الشرق الأوسط، خاصة رفض الدول العربية التفاوض مع إسرائيل وجهاً لوجه، ورفض إسرائيل القبول بهوية فلسطينية مميزة[١٦٦].

وأدت محادثات السلام التي استضافتها إسبانيا، تلك الدولة النصرانية التي تميزت عبر تاريخها بأنها الأكثر تعصباً دينياً للكاثوليكية، وشهدت أرضها أخطر اتفاقية على الإسلام والمسلمين، وهي تلك التي تم توقيعها في غرناطة عام ١٤٩١م، وأخرج المسلمون بموجبها من الأندلس بعد أن عمروها نحو ثمانية قرون، لقد أدت تلك المحادثات إلى كسر الحاجز النفسي أمام اللقاءات العربية الإسرائيلية المباشرة، إذ عقدت لقاءات سرية في أوسلو عاصمة النرويج بين وفد فلسطيني برئاسة محمود عباس، ووفد إسرائيلي برئاسة وزير خارجية إسرائيل شمعون بيرس، ونجم عن تلك اللقاءات التوصل إلى اتفاق إعلان المبادئ بشأن ترتيبات الحكم الذاتي الفلسطيني الذي وقع بالأحرف الأولى في أوسلو يوم ١٩ آب عام ١٩٩٣م، وجرى التوقيع عليه رسمياً في واشنطن يوم ١٣ أيلول عام ١٩٩٣م[١٦٧].

---

[١٦٥] عتيقة، الوطن العربي والمستجدات الإقليمية والدولية، ص١٩٤-١٩٧.

[١٦٦] النجاني، المدخل إلى النظام السياسي، ص١٣٥.

[١٦٧] الخلايلة، الاستراتيجية الأردنية، ص٦٢٥.

وهكذا انزلق الفلسطينيون إلى الفخ الذي نصبته الدول الصليبية بقيادة الولايات المتحدة، ووقعوا اتفاقاً سرياً لا يختلف في جوهره عن اتفاق تسليم غرناطة، فقد نص اتفاق إعلان المبادئ على "أن حكومة دولة إسرائيل والفريق الفلسطيني يتفقان على أن الوقت قد حان لإنهاء عقود من المواجهة والنزاع، والاعتراف بحقوقهما المشروعة والسياسية المتبادلة، والسعي للعيش في ظل تعايش سلمي وبكرامة وأمن متبادلين ولتحقيق تسوية سلمية عادلة ودائمة وشاملة، ومصالحة تاريخية من خلال العملية السياسية المتفق عليها"[١٦٨].

ونصت المادة الأولى من إعلان المبادئ على أن هدف المفاوضات هو إقامة سلطة حكومية ذاتية انتقالية فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة لفترة انتقالية لا تتجاوز خمس سنوات، وتؤدي إلى تسوية دائمة تقوم على أساس قراري مجلس الأمن (٢٤٢) و(٣٣٨)[١٦٩].

ونصت المادة الخامسة من اتفاق إعلان المبادئ على أن تبدأ فترة السنوات الخمس الانتقالية فور الانسحاب من قطاع غزة ومنطقة أريحا، وتبدأ مفاوضات الوضع الدائم بين حكومة إسرائيل وممثلي الشعب الفلسطيني في أقرب وقت ممكن، على ألا يتعدى بداية السنة الثالثة من الفترة الانتقالية، وتغطي هذه المفاوضات القضايا المتبقية بما فيها القدس واللاجئون والمستوطنات والترتيبات الأمنية والحدود والعلاقات...[١٧٠].

وكان اتفاق أوسلو ليس سوى تصفية للقضية الفلسطينية، فهو لا يترك أي مجال للأجيال القادمة من أجل العمل على تحرير الأرض الإسلامية الفلسطينية من البحر إلى النهر. كما أن هذا الاتفاق فتح الطريق أمام بعض الدول العربية لتوقيع معاهدات سلام منفردة مع إسرائيل، وإقامة علاقات دبلوماسية واقتصادية وتعاون وتطبيع معها، وأدى إلى إضفاء الشرعية السياسية والقانونية والدولية على دولة إسرائيل وحقها في الوجود[١٧١].

---

[١٦٨] الشوا، مستقبل السلام في الأرض المقدسة، ص٢٤٩.

[١٦٩] الملف الوثائقي، مسيرة السلام، ص٤٤.

[١٧٠] المرجع نفسه، ص٤٥.

[١٧١] الحمد، عملية السلام، ص٤٨.

وأهمل الاتفاق قضايا أساسية، وتنازل عن حقوق أقرتها الدول خاصة حق مقاومة الاحتلال، كما أضعف المطالب الفلسطينية بدولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة كاملة بتأجيله البحث في جوهر القضية، وهو إنهاء الاحتلال، وحل القضايا التي تمس السيادة الوطنية كالقدس والمستوطنات والحدود واللاجئين. وبموجب إعلان المبادئ وافقت منظمة التحرير الفلسطينية على شرعية الاحتلال العسكري بمشاركتها في إدارة المناطق مما يعد بداية لمشروع (الكنتونات)[١٧٢].

وليس من شك في أن إسرائيل حققت بمساعدة الدول الصليبية معظم أهدافها عبر اتفاق المبادئ في أوسلو، وحولت منظمة التحرير الفلسطينية من منظمة جهادية كانت تصفها بالإرهابية إلى مجرد ذراع سياسية تعمل من داخل المناطق المحتلة تحت بصر إسرائيل وسمعها، وربما كان هذا هو الهدف المحوري الذي أرادت إسرائيل أن تحققه، وتمكنت من ذلك بسبب تغافل الأمة أو غفلتها عما يدور حولها[١٧٣].

لقد قام اتفاق إعلان المبادئ على قاعدة (غزة – أريحا أولاً)، وتم توضيح ذلك الإعلان باتفاق (أوسلو ١) الذي وقع في القاهرة في ٤ أيار عام ١٩٩٤م، ثم باتفاق (أوسلو ٢) الذي وقع في واشنطن بتاريخ ٢٨ أيلول عام ١٩٩٥م، وبموجب هذا الاتفاق الأخير قطعت أوصال الضفة الغربية، حيث قسمت قسمة عجيبة غريبة إلى أربع مناطق: (أ) و(ب) و(ج) و(د)، وتضم المنطقة (أ) مدن: جنين وطولكرم وقلقيلية ونابلس وبيت لحم ورام الله، وتصبح تحت إشراف الأمن الفلسطيني. وتضم المنطقة (ب) قرى الضفة الغربية المحيطة بتلك المدن، وتصبح تحت إشراف مشترك لقوات الشرطة الفلسطينية والجيش الإسرائيلي. بينما تتضمن المنطقة (ج) المناطق غير المأهولة، وسيكون الأمن فيها من مسؤولية الإسرائيليين، بينما ستكون السلطة المدنية من مسؤولية الفلسطينيين. وأما المنطقة (د) فتشمل المستوطنات الإسرائيلية وعددها (١٢٤) مستوطنة بالإضافة إلى

---

[١٧٢] الحمد، عملية السلام، ص٤٨،٧٠؛ أبو عمرو وآخرون، قراءة تحليلية للاتفاق الفلسطيني – الإسرائيلي، ص١٦.

[١٧٣] الحمد، عملية السلام، ص٥٢-٥٣.

قواعد الجيش الإسرائيلي وبعض الموانئ الساحلية، وتخضع هذه المنطقة للسيطرة الإسرائيلية[١٧٤].

وهذا التقسيم لا يمكن للمواطن العربي المسلم أن يفهم أو يستوعب حكمة الفلسطينيين من الموافقة عليه، لأن من يدقق النظر فيه يدرك أنه تكريس للاحتلال وليس منحاً للاستقلال بأي صورة من الصور، سواء كان هذا الاستقلال مبتوراً أم كاملاً.

إن ما يمكن أن يتفهمه المواطن العربي المسلم المصاب بالإحباط الشديد بسبب ما آلت إليه الأمة في ظل الوضع العالمي، وتزعم أعتى دولة عرفتها الأرض لعالم اليوم هو معادلة بسيطة تقوم على أساس انسحاب إسرائيل الكامل والشامل من جميع الأراضي التي احتلتها في حرب حزيران عام ١٩٦٧م مرة واحدة مقابل إنهاء حالة الحرب معها وضمان أمنها من قبل الولايات المتحدة ضد المخاطر السياسية، والولايات المتحدة قادرة على ذلك في ظل الأوضاع الراهنة للأمة العربية الإسلامية، ولذلك فإن ما حدث ليس سلاماً، وإنما هو استسلام لإرادة الصليبيين في نطاق الحرب المستمرة التي يشنونها ضد الإسلام وحضارة المسلمين.

ولم يكن السلام الذي فرض على المنطقة خياراً عربياً وإسرائيلياً، وإنما كان خياراً أمريكياً، والولايات المتحدة التي ورثت قيادة الصليبيين وروحهم وتطرفهم ما فتئت تلجأ إلى أي وسيلة تمكنها من قهر المسلمين، وتضييق الخناق عليهم، وإضعافهم، والاستيلاء على مقدراتهم إن بفرض الاستسلام على هذه الأمة عبر إسرائيل، أو بشن الحروب ضدها عبر حجة تهديد العراق لجيرانه، أو عبر وضع استراتيجية كونية بهدف السيطرة على مقدرات المنطقة العربية وثرواتها.

---

[١٧٤] الملف الوثائقي، مسيرة السلام، ص٤٨؛ سعيد، غزة – أريحا سلام أمريكي،المستقبل العربي، ص ١٢١-١٢٢.

العولمة: سلاح صليبي جديد:

تتمثل الاستراتيجية الكونية التي وضعتها الولايات المتحدة الأمريكية في العولمة (Globalization) التي تعني من بين ما تعنيه: "اندماج أسواق العالم في حقول التجارة والاستثمارات المباشرة وانتقال الأموال والقوى العاملة والثقافات ضمن إطار من حرية الأسواق، وبالتالي خضوع العالم لقوى السوق العالمية، مما يؤدي إلى اختراق الحدود القومية، وإلى انحسار سيادة الدولة"[١٧٥].

وقد برزت ظاهرة العولمة عقب انهيار الاتحاد السوفياتي، والتقدم السريع في مجال الاتصالات، وزيادة تشابك المصالح الدولية الاقتصادية، وهيمنة رؤوس الأموال الغربية على الأسواق. وكانت هذه الظاهرة أمريكية بالدرجة الأولى، وقد وجدت أمريكا في عالمنا العربي بشكل خاص تربة خصبة لترويجها، فعملت على تعميم هذه الظاهرة في كل المجالات الحكومية والسياسية والمالية والاجتماعية والتشريعات الضريبية والقضائية، وأشكال الاستثمار في القطاعين العام والخاص.

وهكذا أصبح الغرب الصليبي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن امتلك القوة العلمية والتكنولوجية يسعى إلى الهيمنة على عالمنا العربي، ليجعله جزءاً لا يتجزأ منه، يتخلق بأخلاقه، ويتشرب قيمه، ويفتح أسواقه لمنتوجاته، وقد نجح الغرب في إخضاع مستقبل العرب لشروط عمل آليات العولمة الاقتصادية التي تقضي بإبقائهم بعيدين عن حركة التصنيع والاعتماد على الذات[١٧٦].

وتفرض العولمة سياستها عبر مؤسسات دولية قوية أقامتها الدول الغربية الصليبية لفرض شروطها وإرادتها، وهذه المؤسسات التي سبقت الإشارة إليها هي صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، ومنظمة التجارة العالمية التي أصبحت تفرض علينا شرط الإصلاحات الاقتصادية وإلا فإنها لن تقدم أي مساعدات.

---

(١٧٥) الحمش، العولمة ليست الخيار الوحيد، ص٢٦.

(١٧٦) الجميلي، الاقتصاد السياسي، مجلة الطريق، العدد ٣ السنة ٥٨، ص٤٧.

وغني عن القول أن تلك المؤسسات لا تقبل عضوية أي دولة في منظمة التجارة العالمية ما لم تقدم تلك الدولة شهادة حسن سلوك معتمدة من البنك الدولي وصندوق النقد الدولي تتضمن أنها، أي الدولة، تقبل الخضوع لكل شروط تلك المؤسسات لتصبح تحت وصايتها. والمخاطر التي يجب على عالمنا العربي أن يتنبه لها وهو يقع في متناول أخطبوط العولمة الغربي كثيرة، وآثارها مدمرة، فالعالم العربي سيجد نفسه أمام جيوش من البطالة نتيجة الخصخصة المفروضة عليه، وسيشكل العاطلون عن العمل أعباء كبيرة مادية وأمنية، وسيترتب على ذلك زيادة الجريمة نتيجة انتشار تعاطي المخدرات، وانتشار الأوضاع التي ستفرضها أنماط وقيم وافدة. كما أن الاقتصاد الوطني سيخضع للشريك الاستراتيجي الذي تفرضه تلك المؤسسات، مما يعني أن ذلك الشريك هو الذي سيتحكم في الاقتصاد الوطني، وبالتالي فإن العالم العربي سيواجه مزيداً من الفقر بدلاً من الثراء المزعوم الذي يعد به أرباب رأس المال الغربيون.

والأخطر من تأثير العولمة في المجال الاقتصادي هو تأثيرها في المجال الثقافي، ذلك أن الاختراق الثقافي يعد من أبرز الأساليب التي تتبعها قوى العولمة الثقافية في صراعها مع الثقافة العربية الإسلامية، فالعولمة الثقافية ليست إلا نقلاً للثقافة الأمريكية بقيمها ومفاهيمها. والعالم العربي اليوم أصبح يعيش تحت رحمة الشبكات الإعلامية العالمية، والضخ الإعلامي عبر الفضائيات والإنترنت، وهو مضطر إن لم يحصن نفسه إلى تقبل كل ما يفرضه الغرب دون اعتراض، وسيجد نفسه في نهاية المطاف ذا عادات وتقاليد وأنماط وسلوكيات غريبة، وقد تتغير حتى أنماط حياته اليومية متوهماً أن الأفضل والأرقى دائماً هو ما يأتي من الغرب المتقدم.

وما دام خطر العولمة لا يقل عن خطر الحروب التي شنها الصليبيون ضد المسلمين في الأندلس والمشرق، بل ربما كان أخطر، فإن ذلك يقتضي ضرورة التصدي لها عن طريق تعزيز هوية الفرد العربي المسلم، والجماعة العربية المسلمة، وكذلك العمل على بناء قاعدة من الاتصالات الحديثة تغطي أنحاء العالم، وتقوم على أساس أخلاقي نابع من ثقافتنا وشريعتنا المحمدية، لتزويد المشاهدين والمستمعين بما ينير عقولهم، ويجعلهم يدركون الفرق الشاسع بين وهم الحضارة الغربية وحقيقة الإسلام.

الخاتمـــــــة

إن ما تعرض له مسلمو الأندلس منذ خمسة قرون يتعرض له اليوم مسلمو فلسطين، ومسلمو البوسنة والهرسك وأذربيجان وكمبوديا وموزامبيق وأنغولا والصومال وأرتيريا، فكل أولئك يواجهون حروباً داخلية مفجعة لا تكاد تنطفئ حتى تعود إلى الاشتعال من جديد، وقد أطمع التشتت والضعف والفرقة أعداء الإسلام والمسلمين بهذه الأمة في الماضي والحاضر.

ففلسطين تتعرض ويتعرض أهلها على أيدي العصابات الصهيونية لألوان من القتل والتشريد والتعذيب، والشواهد الصارخة على ذلك ما زالت حية في الأذهان، وما زالت مذابح دير ياسين وكفر قاسم وفظائع الطنطورة وحرق الأسرى والعجزة وهم أحياء وبقر بطون الحوامل وإجهاضهن، وذبح الأطفال في حجور أمهاتهم، وتكسير العظام وهدم البيوت وغير ذلك من الأعمال الوحشية البربرية التي تتميز بها أيديولوجيتهم، كل ذلك ما زال يستصرخ الضمائر.

لقد أخرج الفلسطينيون من ديارهم بقوة الظلم، ومنطق الحراب، وهدير المدافع والدبابات والطائرات، أخرجوا وهم لا يحملون من متاع الدنيا شيئاً سوى مفاتيح بيوتهم وعقود ملكيتهم لأراضيهم التي ورثوها لأبنائهم وأحفادهم، كما ورثها الأندلسيون لأبنائهم لتبقى أمانة في أعناقهم على مر العصور تستنهض الهمم لإعادة المجد التليد، واسترداد الأرض السليبة.

ينبغي أن لا يخفى أن عداء العروبة والإسلام ينبع من الأيديولوجية الغربية التي تغذيها الرأسمالية العالمية الحريصة على تبرير استغلالها وعدوانها مستعينة على ذلك بشتى وسائل إعلامها الرهيبة المتطورة.

وما جرى ويجري في فلسطين مما هو معروف، يجري الآن في البوسنة والهرسك ذلــك البلد الإسلامي الذي تكالبت عليه قوى الشر، وأخذت تطحنه لمجرد أنه مسلم، وأن أهله يتمسكون بإسلامهم.

وإذا كانت قصة الأندلس قد أصبحت معروفة لكل الأجيال كقضية أشبعها المؤرخون بحثاً، وإذا كانت قصة فلسطين المأساوية قد عشعشت في شرايين أبنائها وغيرهم من أبناء الأمة المسلمة الذين يتابعون أخبارها وأهوالها لحظة بلحظة، فإن قصة البوسنة والهرسك ما تزال غير واضحة المعالم، ويكتنفها الغموض الذي لا بد من كشفه وإيضاح ملابساته.

تقع البوسنة والهرسك في وسط غرب ما كان يعرف سابقاً باتحاد جمهوريات يوغسلافيا، وتبلغ مساحتها ٥١,١٢٩ كم^{٢}، وأما عدد سكانها فيبلغ نحو أربعة ملايين وثلاثمائة ألف نسمة، ٤٢,٧% منهم مسلمون، و٣١,٣% صرب، و١٧,٣ كروات، و٧,٧ % من جنسيات أخرى.

وقد دخل الإسلام إلى البوسنة والهرسك في القرن الخامس عشر، حيث تمكن العثمانيون من فتح أجزاء منها عام ١٤٦٣م على يد محمد الفاتح ثم أكملوا فتحها عام ١٥٢٨م، في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني، وصارت بذلك ولاية عثمانية دان معظم سكانها بالإسلام، وقد تزامن ذلك مع خروج المسلمين من الأندلس.

ونظراً للسياسة العثمانية المتشددة خاصة فيما يتعلق بالضرائب، فقد تململ البوسنيون وتمردوا أكثر من مرة، إلا أن الدولة سرعان ما كانت تسيطر على تمردهم.

وفي عام ١٨٧٥م، في مرحلة ضعف الدولة العثمانية، قام مسيحيو الهرسك بتمرد وثورة امتدت إلى الصرب الأرثوذوكسي، وظلت مشتعلة إلى أن تمكنت النمسا والمجر من احتلال البوسنة والهرسك عام ١٨٧٨م. وفي عام ١٩٠٨م قامت الدولتان المحتلتان بإعلان ضمهما إليهما بموافقة الدول الأوروبية. وفي أثناء الحرب العالمية الثانية ألحقت البوسنة وكرواتيا بمملكة الصرب، وفي عام ١٩٤٥م جعلهما تيتو إحدى جمهوريات الاتحاد التشيكوسلوفاكي.

وقد بدأت مأساة البوسنة والهرسك عام ١٩٩١م إثر تفكك الاتحاد اليوغسلافي، اذ استقلت في البداية كرواتيا وسلوفينيا وهما جمهوريتان كاثوليكيتان، ولم تستطع صربيا الأرثوذكسية منعهما لما حظيتا به من دعم مادي ومعنوي من أوروبا والعالم.

وفي شهر آذار من عام ١٩٩٢م أعلنت البوسنة والهرسك الاستقلال بعد استفتاء قامت به، وفي ١٩٩٢/٥/٢٢ قبلت عضوا في الأمم المتحدة، إلا أن صرب البوسنة لم يقبلوا بنتيجة الاستفتاء، وأعلنوا الحرب على المسلمين هناك بدعم من صربيا التي تعمل على أن تبقى البوسنة تحت جناحها.

وهكذا اشتعلت حرب ضروس شنها الصرب ضد مسلمي البوسنة، ويعتبر الصراع هناك هو الأعنف في أوروبا منذ عام ١٩٤٥م، وضحيته هم المسلمون الذين حرموا من التزود بالسلاح الضروري للدفاع عن أنفسهم، بينما أتيح للصرب من كل مكان، وكانت النتيجة مذبحة دامية وتشريداً وتدميراً وهتكاً للأعراض، وقد بلغ القتلى ١٢٨ ألفاً، والنساء المغتصبات ٣٠ ألف امرأة. وتم اعتقال عشرات الألوف الذين يتعرضون للتعذيب باستمرار، وتم تشريد مليوني مسلم، وتدمير مئات القرى وعشرات المدن، وتم هدم ما يزيد على ٦٠٠ مسجد، وحوصر ما يربو على ٤٠٠ ألف من المسلمين في سراييفو وغيرها من مدن البوسنة، وكادوا يموتون جوعاً، أو بوابل النيران، أو نتيجة البرد الشديد. فالمسلم في البوسنة كان يفر من الموت إلى الموت، والعالم الإسلامي الضعيف المشتت يتفرج دون أن يجرؤ حتى على قول كلمة حق.

أما أرض البوسنة فقد استولى الصرب على ٧٠% منها، واستولى الكروات على ٢٠%، وهناك اتفاقات خطيرة بين الصرب والكروات لاقتسام البوسنة.

وأما فيما يتعلق بأذربيجان المسلمة فهي إحدى الجمهوريات الست عشرة التي ألفت ما كان يعرف بالاتحاد السوفياتي، روسيا، كاريليا، استونيا، ليتونيا، ليتوانيا، روسيا البيضاء، أوكرانيا، مولدافيا، جورجيا، أذربيجان، أرمينيا، كازاخستان، تركمانستان، أزبكستان، طاجكستان، كيرغيستان. ومشكلة أذربيجان – القوقاز – أنها تعاني من تيارات ونزاعات مختلفة، منها الحرب التي شنتها أرمينيا ضد أذربيجان، والتي قد تؤدي إلى أوخم العواقب إذا لم يتم احتواؤها بصورة سريعة وفعالة تقبل بها جميع الأطراف

المتخاصمة، وإلا ستكون الحال كما آلت إليه دولة المسلمين في البوسنة والهرسك، وستمتد إلى دول البلقان لتفجع المسلمين فيها. والذي يظهر واضحاً في هذا الصراع هو الكراهية للإسلام والمسلمين، ليس فقط من الصرب والكروات، ولكن أيضا من أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

فالصرب يرفعون الصليب في قتالهم مع المسلمين، وهو ما كان يفعله الفرنجة أثناء الحروب الصليبية ضد الإسلام في القرون الوسطى، وقد صرح عدد من زعماء الصرب أنهم يخوضون الحرب دفاعاً عن أوروبا لحمايتها من الإسلام. والمساجد تدمر وتحرق، وقد صرح الرئيس الفرنسي ميتران لرئيس البوسنة عندما التقاه: لا نريد دولة أصولية (إسلامية) في أوروبا. وما قاله ميتران لا يختلف عما قاله ميجر، رئيس وزراء بريطانيا، حيث أكد في توجيهاته لوزير خارجيته أن البوسنة المسلمة يجب أن تدمر حتى لا تقوم للمسلمين قائمة في أوروبا.

نقول لهؤلاء الأعداء، أعداء الإسلام، ان المسلمين كما جاء في الآية الكريمة في سورة البقرة (الآية ٢٨٥)، يؤمنون بالملائكة والكتب السماوية المختلفة، والأنبياء جميعاً، وهم لا يميزون بين كتاب سماوي وآخر، ولا يفضلون نبياً على نبي، فالأمة الإسلامية لم تعرف التعصب الديني، ولم تسع إليه في يوم من الأيام، وقد كان المسلمون في شتى الأزمنة وما زالوا مثالاً للتسامح بين الأديان.

ذلك لأن الكتب السماوية جميعها تأتي في نظر المسلمين منسجمة مع بعضها، خالية من التناقض الذي قد يتوهمه البعض لأنها كلها تنهل من معين واحد. وما حدث في الأندلس، تلك البلاد التي فتحها المسلمون وأسسوا فيها حضارة إسلامية عريقة أضاءت بأنوارها غياهب الجهل الأوروبي، إلا أنها انتهت على النحو الذي ذكرنا بتوقيع المعاهدة المشؤومة، ولكن بعد تسليم غرناطة عامل النصارى الإسبان المسلمين معاملة غير إنسانية، فقد مارسوا ضدهم شتى ألوان القمع والاضطهاد بغية التنصير أو التهجير، الأمر الذي يجعلنا نقول أن المسلمين أيام حكمهم للأندلس أبقوا للإسبان الحرية الدينية الشاملة، التي ضمنت لهم حقوقهم الإنسانية وكرامتهم بغض النظر عن دين كل واحد منهم أو جنسه أو لونه أو لغته. وكذلك سمحت لهم بالبقاء على دينهم في البوتقة الإسلامية يمارسون فيها طقوسهم الدينية دون أي تدخل أو تطرف، وعلى هذا التسامح الديني قام البناء الحضاري

الأندلسي الراسخ الشامخ ردحاً طويلاً من الزمن، وما زالت آثاره ماثلة للعيان. هكذا خلت نظرة الإسلام من التمييز بين البشر على أساس اختلافهم في الجنس والعرق واللون واللسان، بعكس نظرة الغرب وزعمائه.

إن المسلسلات الإجرامية ضد الإسلام والمسلمين لا يكاد ينتهي أحدها حتى يبدأ الآخر. ويجدر بنا نحن العرب أن ندرك أن القوي عندما يتعهد للضعيف لن يتردد أبداً في نقض عهده أو تعهده متى وجد في ذلك تحقيقاً لمآربه، ولن يعدم الوسيلة لإسباغ ثوب المثالية والإنسانية والحرص على العمل على سياسته الغادرة. وهذا هو سر السياسية اليهودية والأمريكية والأوروبية إزاء العرب والمسلمين، إنهم يتعهدون، ولكنهم لا يلتزمون بعهد متى أصبح ذلك الالتزام ضد مصالحهم، أو حد من أطماعهم وغاياتهم الشريرة في القضاء على معالم تلك الحضارة الإسلامية العظيمة، والسيطرة على ثروات المسلمين.

إنهم يثبتون كل يوم أن الصدق والإخلاص والأمانة، لها في السياسة معان غير معانيها، وكأن السياسة ولدت من رحم الغش والخداع.

ولم يتعلم العرب والمسلمون ولم يعتبروا من المرة الأولى، ولا تعلموا، ولا اعتبروا من المرة الثانية، ويبدو أنهم لن يتعلموا أبداً، ولن يعتبروا حتى وإن لدغوا ألف مرة، مع أن المؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين. ما أصعب حياة الاستسلام والركون إلى حياة الذل والإهانة، فإما الموت في ميدان الشرف أو الحياة في ظلال القوة والعزة، فأين العاطفة الدينية لدى المسلمين؟ وأين القومية العربية لكي يهبوا من أجل إنقاذ الأرض والتراث والمقدسات التي يعبث بها العدو كما يشاء؟ أو يهبوا لإنقاذ الأمة الجريحة في كرامتها التي ذاقت وما تزال صنوفاً من العذاب، وعاشت في أواخر أيامها تاريخاً مليئاً بالنكبات والكوارث.

أين هو العالم الإسلامي ليتخذ موقفاً موحداً إيجابياً من أجل إنقاذ من يمكن إنقاذهم من المسلمين الذين يشردون وينصَّرون ويقتلون في كل مكان.

لقد فتحت دول أوروبا جميع أبوابها امام هجرة الأطفال المسلمين من البوسنة والهرسك مظهرة الشفقة والعطف، ولكن الحقيقة غير ذلك، فهي تسعى بشكل حثيث ومتواصل لتلقينهم الديانة المسيحية كما فعل الإسبان بأبناء المسلمين.

ويستخدم الغرب ضد العرب المسلمين أساليب وحشية عديدة فهو إضافة إلى استعمال قوة الحديد والنار يلجأ إلى التمويه والتلفيق وإلى الخداع والدس والوقيعة بين العرب والمسلمين أنفسهم ليهدم بعضهم بعضا، ويزيد من تشتتهم وفرقتهم وتباعد ما بينهم، وتقطيع ما يقرب بينهم من وشائج، ومن المظاهر الدالة على تحكم غير العرب في الشؤون العربية ما يلاحظ في الآونة الأخيرة لدى النظر في سجل حرب الخليج ونتائجها التي انتهت إليها من نكسة للأمة العربية واستنزاف خيراتها وإعاقة وحدتها وإراقة دماء أبنائها. ونقول لبعض الحكام العرب أن استمراركم في الخضوع لأنظمة حكم غير عربية، وسماحكم لتدخل القوى الخارجية في شؤوننا العائلية كما كان يحدث أيام حكم ملوك الطوائف بالأندلس، ومساعدتكم في تحويل الرابطة القومية من عامل وحدة إلى عامل فرقة واستضعاف، بالرغم من كثرة عددنا واتساع أرضنا ووفرة مالنا، نقولها صراحة بأمانة وصدق، أن التاريخ لا يرحم، وسيسجل ما لنا وما علينا. وما وقع بين العراق والكويت مثل على ما سيرصده من هفواتنا الكبيرة. إن أعداءنا يمهدون بما يفعلون إلى نشر الفساد في أمة العرب، وتدمير قوتها، فقد خلقوا ظروفاً حرجة أتاحت لهم التدخل في شؤوننا الداخلية، وأحكموا الحصار الاقتصادي والسياسي والعسكري على العراق لإضعافه وإخضاعه وتحطيم قوته حتى لا تقوم له قائمة، ويظل راكعاً للقوى العالمية المناوئة للعروبة والإسلام لينفذ رغباتها دون أدنى قدرة على المقاومة. ونتيجة ذلك كله سيكون الفقر والتشرد والشرذمة للأمة، ثم كسر الروح العربية التي سيعقبها – لا سمح الله – اضمحلال هذه الأمة وهو ما يسعون إليه.

وعلى الأمة العربية أن تدرك ذلك جيدا، وأن تدرك أيضاً أن مصلحتها في الاعتماد على نفسها، وقوة جيوشها، ووعي مواطنيها لا يخدعها باتعو الكلام ومصدرو الأحكام، وإلا ظلت تجري وراء برق خلب، ولا بد من نواة صالحة تجمع النزهاء والشرفاء من أمة العرب والمسلمين على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، هذه النواة هي التي توثق الألفة والمحبة والإخاء بين هذه الشعوب.

إن ما آلت إليه الحال في الأندلس يجب أن لا تؤول إليه في فلسطين، مهما كثرت الجرائم، وسلبت الحقوق وهدمت صروح الأخلاق ومدت الأيدي الأثيمة إلى معاقل الدين الذي أصبح خطراً – من وجهة نظرهم – يهدد أمنهم واستقرارهم، أقول مهما اشتدت تلك العواصف ومهما قصفت رعود الباطل، ودوت أصوات مدافع الظلم والطغيان من ملة الإلحاد، أقولها صراحة أنها لن تؤثر في أمتنا العربية الإسلامية إن كنا قد حافظنا على كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ويجب علينا أن نكون أشد حرصاً، وأكثر حذراً، لكي لا نقع في المحذور مرة أخرى، فإن للباطل جولة قصيرة ثم يضمحل وكلمة الله هي العليا، والعاقل من اتعظ.

المصادر والمراجع

أ. المصادر:

أولاً – الكتب:

الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد الحسيني (ت ٥٦٠هـ):

- صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في أخبار الآفاق، ليدن، مطبعة بريل، ١٩٦٨م.

ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي:

- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

ابن الأثير، الشيخ العلامة عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن واحد الشيباني (ت ٦٣٠هـ):

- الكامل في التاريخ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد السلماني (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م):

- الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، مكتبة الخانجي، د.ت.
- اللمحة البدرية في الدولة النصرية، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط٢، ١٩٧٨م.

ابن الكرديوس، أبو مروان عبد الملك (ت بعد ٦٧٣هـ):

- تاريخ الأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، مدريد، معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٧١م.

ابن خلدون، عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٨م):

- تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٩٨١م.

ابن سعيد، أبو الحسن علي موسى (ت ٦٧٣هـ/١٢٧٤م):
- المغرب في حلي المغرب، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف بمصر، ط٣، د.ت.

ابن عذاري المراكشي، ابو العباس أحمد بن محمد (ت ٦٩٥هـ/١٢٩٥م):
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان وليفي بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، ط٣، ١٩٨٣م.

البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م):
- جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبد الرحمن الحجي، بيروت، دار الإرشاد للطباعة، ١٩٦٨م.

الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٥م):
- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٥م.
- صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، نشر وتصحيح وتعليق ليفي بروفنسال، بيروت، دار الجليل، ط٢، ١٩٨٨م.

العذري، أحمد بن عمر بن أنس (ت ٤٧٨هـ/١٠٨٥م):
- نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، والبستان في غرائب البلدان، والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مدريد، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٦٥م.

مجهول:
- نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تحقيق ألفريد بستاني، العرائش (المغرب)، د.ن، ١٩٤٠م.

المراكشي، محي الدين عبد الواحد بن علي (ت ٦٢٠هـ/١٢٢٤م):
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب (من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين)، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.

المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ):
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
- أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وحافظ شلبي، القاهرة ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م.

الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد:
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف: الأستاذ جعفر الناصري والأستاذ محمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٥٦م.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م):
- نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الرابع والعشرون، تحقيق الدكتور حسين نصار، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي:
- معجم البلدان، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت.

ثانياً: الوثائق:

– فرناندو دي زافرا (سكرتير الملكين الكاثوليكين):

- Las Capitulaciones para la entrega de Granada por Miguel Garrido Atienza (Granada 1910).
- M. GASPAR REMIRO: Documentos Arabes de la Corte Nazari de Granada. "Primeros pactos y correspondencia Intima entre los Reyes Catolicos y Boabdil". Revista de Archvos, Bibliotecas y Museos. Madrid I. 910 Tomo XXII, Pags. 260-269 y 421-431 y XIII, Pags. 137-148 y 411-423.

– الوثيقة رقم (P.R. Leg II. Fol 206) والوثيقة رقم (P.R. Leg II. Fol 203) وهما وثيقتان سريتان مخطوطتان من وثائق دار المحفوظات العامة في سيمانقاس (Archivo General De Simancas) ويمكن العثور عليهما ضمن مجموعة (Capitulaciones Con moros Y Caballeros de Castilla).

ب. المراجع:

أبو رميلة، هشام:

- علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس، عمان، دار الفرقان، ١٩٨٤م.

ابن الحسين، عبد الله:

- الآثار الكاملة (حقبة من تاريخ الأردن)، بيروت، الدار المتحدة للنشر والتوزيع، ١٩٨٥م.

ابن طلال، الأمير الحسن:

- السعي نحو السلام، القاهرة، مطابع الأهرام التجارية، ١٩٨٥م.

أبو عمرو، زياد:

- قراءة تحليلية للاتفاق الفلسطيني – الإسرائيلي (غزة – أريحا أولاً)، نابلس، مركز البحوث والدراسات الفلسطينية، أيلول ١٩٩٣م.

آل خليفة، خالد:

- التأثير البرتغالي على التجارة في الخليج العربي خلال القرن السادس عشر، ندوة: مكانة الخليج العربي في التاريخ الإسلامي من سقوط بغداد إلى نهاية الاستعمار البرتغالي (٦٥٦–١٠٦٤هـ/١٢٥٨–١٦٥٠م)، كلية الآداب، جامعة الإمارات العربية المتحدة، العين، ١٩٩٠م.

أمين، عبد الأمير محمد:

- دراسات في النشاط التجاري والسياسي الأوروبي في آسيا ١٦٠٠–١٨٠٠م، عمان، منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٨٧م.
- المصالح البريطانية في الخليج العربي (١٧٤٧–١٧٧٨م)، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٧٧م.
- نظرة جديدة للإنجازات السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية في آسيا

"دراسة في عوامل تدهور الإمبراطورية البرتغالية وانحلالها"، الجامعة الأردنية، مجلة دراسات، المجلد الخامس عشر، العدد السابع، ذو القعدة ١٤٠٨ هـ/ تموز ١٩٨٨م.

البطريق، عبد الحميد وعبد العزيز نوار:

- التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧١م.

بيك، فردريك:

- تاريخ شرقي الأردن وقبائلها، ترجمة بهاء الدين طوقان، عمان، الدار العربية للتوزيع والنشر، ١٩٣٥م.

الجمل، شوقي عطا الله:

- المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، القاهرة، ١٩٧٧م.

الجميلي، حميد:

- الاقتصاد السياسي ومستقبل الاقتصاد العربي، مجلة الطريق، العدد ٣، السنة ٥٨، بيروت، ١٩٩٩م.

حتاملة، محمد عبده:

- الأندلس – التأريخ والحضارة والمحنة (دراسة شاملة)، عمان، مطابع الدستور التجارية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- أيبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، عمان، مطابع المؤسسة الصحفية الأردنية (الرأي)، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- موسوعة الديار الأندلسية، عمان، د.ن، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها، عمان، د.ن، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
- التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين، عمان، د.ن، ١٩٨٠م.

الحجي، عبد الرحمن علي:

- التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار القلم، دمشق، بيروت، الكويت، الرياض، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

الحمد، جواد:

- المؤتمر الإقليمي للسلام في الشرق الأوسط من ٩-١٠ أيلول ١٩٩١م، عمان، مركز دراسات الشرق الأوسط، ١٩٩١م.

الحمداني، طارق نافع:

- دور عرب عُمان في إقصاء البرتغاليين عن الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن السابع عشر، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ع ١٣، ١٩٨٤م.

الحمش، منير:

- العولمة ليست الخيار الوحيد، دمشق، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٨م.

الخلايلة، أحمد عبد الرحيم سالم:

- الاستراتيجية الأردنية وارتباطها بالقضية الفلسطينية (جذورها – حاضرها – مستقبلها)، عمان، المطابع العسكرية، ١٩٩٨م.

الدجاني، محمد ومنذر سليمان:

- المدخل إلى النظام السياسي الأردني، عمان، بالمينو برس، ١٩٩٣م.

رضوان، نبيل عبد الحي:

- جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، مكة المكرمة، د.ن، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

رفعت، نادية وعمرو حمودة:

- المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، القاهرة، سينا للنشر، ١٩٩١م.

الروسان، ممدوح:

- العراق وقضايا الشرق العربي القومية ١٩٤١-١٩٥٨م، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩م.

زابوروف، ميخائيل:

- الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، موسكو، دار التقدم، ١٩٨٦م.

سالنجر، بيار وأرك لوران:

- حرب الخليج، باريس، أوليفيه أوربان، شباط ١٩٩١م.

سعيد، إدوارد:

- غزة – أريحا سلام أمريكي، القاهرة، دار المستقبل العربي، أيلول ١٩٩٣م.

الشقيري، أحمد:

- الجامعة العربية كيف تكون وكيف تصبح عربية، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس، ١٩٧٩م.

الشوا، سفيان:

- مستقبل السلام في الأرض المقدسة، عمان، دار الشرق للنشر والتوزيع، ١٩٩٤م.

الصيرفي، نوال حمزة يوسف:

- النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، الرياض، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

الطيبي، أمين توفيق:

- دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤م.

- الوطن العربي والمستجدات الإقليمية والدولية، محاضرة ألقيت في مؤسسة شومان بتاريخ ٢٠/١٠/١٩٩٧م، عمان، ١٩٩٩م.

عريقات، صائب:

- السلام على السلام (١٩٦٧-١٩٨٧م)، القدس، منشورات البيادر، آذار ١٩٨٧م.

عنان، محمد عبد الله:

- عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القاهرة، د.ن، ١٣٨٣-١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، القاهرة، د.ن، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

الغنيمي، محمد طلعت:

- جامعة الدول العربية – دراسة قانونية سياسية، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٧٤م.

قلعجي، قدري:

- الخليج العربي، دار الكتاب العربي، د.ت.

القيسي، عبد الوهاب عباس:

- المجابهة البرتغالية – العثمانية في المياه العربية، أبحاث ندوة رأس الخيمة التأريخية (الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي وشرق إفريقيا)، الجزء الأول، الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي.

كامل، محمد إبراهيم:

- السلام الضائع، اتفاقيات كامب ديفيد، الرياض، الشركة السعودية للأبحاث والتسويق، ١٩٨٤م.

مؤسسة الدراسات الفلسطينية:

- المعاهدة المصرية الإسرائيلية، نصوص وردود فعل، بيروت، ١٩٧٩م.

مؤنس، حسين:

- فجر الأندلس، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية (٧١١-٧٥٦م)، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٥٩م.

مايكل، د.ب:

- الأسرار المذهلة للكارثة الفلسطينية – أي الفريقين أشد نزعة للإجرام والشر، ترجمة وتعريب الدكتور فهمي شما، عمان، جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٩٠م.

محافظة، علي:

- العلاقات الأردنية البريطانية (من تأسيس الإمارة حتى إلغاء المعاهدة ١٩٢١-١٩٥٧م)، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٨٥م.

محمد، عبد القوي فهمي:

- القواسم، نشاطهم البحري وعلاقاتهم بالقوى المحلية والخارجية ١٧٤٧-١٨٥٣م، د.ن، د.ت.

المدفعي، مديحة:

- الأردن وحرب السلام، ترجمة رشيد أبو غيدا، عمان، مكتبة برهومة للنشر والتوزيع، ١٩٩٣م.

المطوي، محمد العروسي:

- الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، تونس، د.ن، ١٩٨٢م.

الملف الوثائقي:

- مسيرة السلام على المسارين الأردني – الإسرائيلي والفلسطيني – الإسرائيلي، منشورات دائرة المطبوعات والنشر، كانون الأول، ١٩٩٣م.

موسى، سليمان:

- من تاريخنا الحديث: الثورة العربية: الأسباب والمبادئ والأهداف، شرقي الأردن قبل تأسيس الإمارة، عمان، لجنة تاريخ الأردن، ١٩٩٤م.
- تاريخ الأردن في القرن العشرين (١٩٥٨-١٩٩٥م)، عمان، مكتبة المحتسب، ١٩٩٦م.

الهداوي، عبد السميع سالم:

- الصهيونية بين الدين والسياسة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م.

الهزايمة، محمد عوض:

- الأيديولوجيا والسياسة الخارجية (دراسة مقارنة)، تونس، الجامعة التونسية، كلية الحقوق والعلوم السياسية، ١٩٩٦م.

هلال، علي الدين:

- أمريكا والوحدة العربية ١٩٤٥-١٩٨٢م، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٩م.

الهور، منير وطارق الموسى:

- مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية (١٩٤٧-١٩٨٥م)، عمان، دار الجليل للنشر، ط٢، ١٩٨٦م.

اليوسف، عبد القادر أحمد:

- علاقات بين الشرق والغرب في القرنين الحادي عشر الهجري/ الخامس عشر الميلادي، صيدا، د.ن، ١٩٦٩م.

معاهدة تسليم غرناطة*

المعقودة بين أبي عبد الله الصغير، والملكين الكاثوليكيين؛ ضون فرديناند وضونيا ايسابيلا بتاريخ ٢١ محرم، سنة ٨٩٧هـ الموافق ٢٥ تشرين الثاني سنة ١٤٩١م بمرج غرناطة (المعسكر الملكي)

المادة الأولى:

على ملك غرناطة والقادة والفقهاء والحجاب والعلماء والمفتين والوجهاء، بمدينة غرناطة والبيازين وضواحيها، أن يسلموا إلى صاحبي السمو، أو من ينتدبانه للنيابة عنهما، في مدة أقصاها ستون يوماً، اعتباراً من ٢٥ تشرين الثاني عام ١٤٩١م معاقل الحمراء، والبيازين، وأبواب تلك المعاقل، وأبراجها، وأبواب المدينة المذكورة، والبيازين، وضواحيهما، وأبراج أبواب المدينة المذكورة. وضمن هذه الشروط يأمر صاحبا السمو بأن لا يصعد أي نصراني السور القائم بين الحمراء والبيازين لئلا يكشف عورات المسلمين في بيوتهم، وإن خالف أحد هذه الأوامر يعاقب عقوبة شديدة، وضمن هذا الشرط سيقدم المسلمون الطاعة والإخلاص والولاء كأتباع مخلصين لصاحبي السمو.

وضماناً لسلامة تنفيذ هذه البنود، يقدم أبو عبد الله الصغير ملك غرناطة إلى صاحبي السمو خمسمائة شخص من أبناء وبنات علية القوم، في المدينة، والبيازين، وضواحيهما، وذلك قبيل تسليم الحمراء بيوم واحد، مصطحبين معهم الحاجب يوسف بن قماشة، ليكونوا جميعهم رهائن لدى صاحبي السمو، لمدة عشرة أيام، يتم خلالها ترميم المعاقل المذكورة، شريطة أن يعامل الرهائن إلى حين انتهاء هذه الفترة معاملة حسنة. وفي نهاية الأجل، يرد الرهائن إلى ملك غرناطة، ويراعي هذه الاتفاقية صاحبا السمو، وابنهما ضون خوان وسلالتهم. ويعتبر أبو عبد الله الصغير، وسائر قادته، وجميع سكان غرناطة، والبيازين، وضواحيهما، وقراهما، وأراضيهما، والقرى والأماكن التابعة للبشرات؛ رعايا طبيعيين، ويبقون تحت رعايتهم ودفاعهم. ونترك لهم جميع بيوتهم وأراضيهم، وعقارهم وأملاكهم حالياً، ودائماً دون أن يلحق بها أي ضرر، أو حيف. وأن لا يؤخذ أي شيء منها يخصهم، بل بالعكس، سيتم احترام الجميع ومساعدتهم، ويلقون المعاملة الطيبة، من قبل صاحبي السمو، وشعبيهما كخدم وأتباع لهما.

---

* انظر نص المعاهدة في: حتاملة، الأندلس: ٦٣٦ وما بعدها؛ التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين: ١٩ وما بعدها.

المادة الثانية:

في الوقت الذي يتسلم صاحبا السمو، قصر الحمراء، يأمران أتباعهما، بالدخول من بابي العشار، ونجدة، ومن الحقل القائم خارج المدينة. وعلى من يعين لاستلام الحمراء، أن لا يدخل من وسط المدينة.

المادة الثالثة:

في اليوم الذي يتم فيه تسليم الحمراء، والبيازين، وشوارعهما، وقلاعهما، وأبوابهما، وغير ذلك يقوم صاحبا السمو، بتسليم ابن الملك أبي عبد الله الصغير، المحتجز في قلعة موكلين، مع سائر الرهائن الموجودين معه، وسائر الحشم، والخدم الذين كانوا برفقته، ولا يكرهون على التنصر أثناء احتجازهم.

المادة الرابعة:

يسمح صاحبا السمو، وسلالتهما، للملك أبي عبد الله الصغير وشعبه أن يعيشوا دائماً ضمن قانونهم (أي بممارسة الشعائر الإسلامية) دون المساس بسكناهم، وجوامعهم، وأبراجهم، وسيأمران بالحفاظ على مواردهم، وسيحاكمون بموجب قوانينهم، وقضاتهم، حسبما جرت عليه العادة، وسيكونون موضع احترام من قبل النصارى، كما تحترم عاداتهم وتقاليدهم إلى غير حين.

المادة الخامسة:

لن تصادر من المسلمين أسلحتهم، أو خيولهم، أو أي شيء آخر حاضراً وإلى الأبد، باستثناء الذخيرة الحربية التي يجب تسليمها لصاحبي السمو.

المادة السادسة:

يسمح لمن يرغب في الجواز إلى العدوة أو أي مكان آخر من أهالي غرناطة، والبيازين، والبشرات، والمناطق الأخرى التابعة لمملكة غرناطة، ببيع ممتلكاتهم، وأراضيهم لمن شاؤوا. ولن يحاول صاحبا السمو، وذريتهما منعهم من ذلك أبداً، وإذا ما رغب صاحبا السمو بشرائها، من أموالهما الخاصة، فشأنهما في ذلك شأن سائر الناس، ولكن الأولوية تكون لهما.

المادة السابعة:

الأشخاص الذين يرغبون في العبور إلى العدوة (أرض المغرب) تجهز عملية نقلهم، في غضون ستين يوماً من تاريخه، على متن عشر سفن كبيرة تتوزع على الموانئ القريبة منهم

حسب رغبة المبحرين، ليحملوا أحراراً وطوع إرادتهم إلى المكان الذي يرغبون النزول إليه، فيما وراء البحر (أرض المغرب) خاصة الموانئ التي كانت ترسو بها تلك السفن.

أما الأشخاص الذين يرغبون في العبور في غضون الأعوام الثلاثة القادمة، فتهيأ لهم السفن الخاصة، من الموانئ القريبة لمكان إقامتهم، شريطة أن يقدموا طلباتهم قبل موعد الرحيل بخمسين يوماً، وينقلون برعاية تامة، إلى الميناء الذي يرغبون بالنزول فيه.

ولا يترتب على من يريد العبور إلى العدوة – خلال الأعوام الثلاثة هذه – أجر أو نفقة. أما الذين يرغبون في العبور بعد انتهاء الأعوام الثلاثة فعليهم دفع دوبلة واحدة فقط عن كل شخص. أما الذين لا يتمكنون من بيع أملاكهم الموزعة في جميع أنحاء مملكة غرناطة قبل سفرهم، فيحق لهم تفويض أي شخص من أجل تحصيل حقوقهم، وليقوموا مقامهم، ويتولوا بعد تلك إرسال هذه الحقوق لأصحابها أينما كانوا، وبدون أية عوائق.

المادة الثامنة:

لا يرغم صاحبا السمو، وسلالتهما حاضراً وإلى الأبد المسلمين، وأعقابهم على وضع أية شارة مميزة لملابسهم.

المادة التاسعة:

لا يحق لصاحبي السمو، لمدة ثلاث سنوات من تاريخه، تحصيل الاتاوات من الملك أبي عبد الله الصغير، وسكان غرناطة، والبيازين، وأرباضهما، وهي الأتاوات التي يترتب أداؤها عن دورهم وأملاكهم الموروثة، بل يكفي أن يدفع المسلمون لصاحبي السمو، عشر الخبز والذرة، وعشر المواشي خلال شهري أبريل ومايو.

المادة العاشرة:

على الملك أبي عبد الله، وسائر سكان المملكة الذين شملتهم هذه الاتفاقية، أن يطلقوا سراح جميع الأسرى النصارى الذين في قبضتهم، أو في أي مكان آخر طواعية، ودون أية فدية، وذلك حين تسليم المدينة.

المادة الحادية عشر:

على صاحبي السمو أن لا يستخدما أي رجل من أتباع أبي عبد الله، أو سكان المملكة، أو أن يسخرا دوابهم في غرض دون إرادتهم، ودون أن تدفع لهم أجورهم.

المادة الثانية عشر:

لا يسمح لأي نصراني بدخول المساجد، أو أي مكان لعبادة المسلمين، دون إذن من الفقهاء، ومن يخالف ذلك يعاقبه صاحبا السمو.

المادة الثالثة عشر:

لا يجوز لأي يهودي أن يتولى الجباية، أو تحصيل الضرائب من المسلمين بشكل مباشر، أو أن يمنح أية سلطة أو ولاية عليهم.

المادة الرابعة عشر:

يعامل صاحبا السمو الملك أبا عبد الله الصغير وسائر رعاياه الذين شملتهم هذه المعاهدة معاملة شريفة وتحترم عاداتهم وتقاليدهم، وتمنح للقادة والفقهاء الحقوق، وتبقى الحقوق التي كان يتمتع بها هؤلاء زمن أبي عبد الله الصغير على حالها، ويعترف لهم بتلك الحقوق*.

المادة الخامسة عشر:

يجب أن يقضي في أية دعوى أو مشكلة تقع بين المسلمين القضاة وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية كما جرت عليه العادة.

المادة السادسة عشر:

يصدر صاحبا السمو أوامرهما للمسلمين بعدم إيواء الضيوف من النصارى، أو إخراج الثياب أو الدواجن أو الدواب، ويشمل ذلك صاحبي السمو وجماعتهما؛ إذ يمتنع على هؤلاء النصارى دخول بيوت المسلمين، واستعمال مضايفهم لإقامة الحفلات.

المادة السابعة عشر:

إذا دخل نصراني منزل مسلم قسراً، يطلب صاحبا السمو من العدالة إيقاع العقوبة عليه.

المادة الثامنة عشر:

فيما يتعلق بقضايا التركات عند المسلمين، يجب أن ينظر بها القضاة المسلمون، وفق النظم الإسلامية المتبعة.

---

* الحقوق التي كانت أيام عبد الله الصغير تشمل: الاحترام، والمنح من ضياع وإقطاعات، وأموال نقدية، وحرية التنقل، وأحقية القضاء حسب نصوص الشريعة الإسلامية، وكل ما يترتب على الملكية، من حق في البيع، أو الهبة، أو ما إلى ذلك.

المادة التاسعة عشر:

تشمل هذه المعاهدة قاطني الأحياء المجاورة لمدينة غرناطة، وسكان القرى والأرجاء التابعة للمدينة، والبشرات، وأماكن أخرى بما في ذلك الأشخاص الذين قد يقبلون المعاهدة بعد مرور ثلاثين يوماً من تسليم غرناطة، ويتمتع هؤلاء بجميع الإعفاءات الممنوحة خلال السنوات الثلاث.

المادة العشرون:

يتولى الفقهاء (إدارة) إيراد الجوامع، والحلقات الدراسية فيها، وما يرصد من أجل الصدقة، أو عمل الخير، بما في ذلك إيرادات المدارس التي تنفق في تعليم الصبيان. ولا يحق لصاحبي السمو التدخل بأي حال من الأحوال في شأن هذه الصدقات، أو الأمر بمصادرتها في أي وقت في الحاضر أو فيما بعد.

المادة الحادية والعشرون:

لا يجوز لمن يتولى القضاء إصدار قرارات ضد أي مسلم بذنب اقترفه آخر؛ فلا يؤخذ الأب بذنب ابنه، ولا الولد بذنب والده، ولا الأخ بذنب أخيه، ولا القريب بذنب قرابته، بل تقع العقوبة على من يقترف الجرم.

المادة الثانية والعشرون:

يقرر صاحبا السمو العفو عن المسلمين من أتباع القائد حميد أبي علي الذين كانوا يذودون عن حصونهم، ضد هجمات النصارى، ولا يطلب أي تعويض عمن قتل من النصارى أثناء اصطدامهم مع المدافعين من المسلمين، أو عما أخذه المسلمون من المكاسب في ذلك المكان في الحاضر أو فيما بعد.

المادة الثالثة والعشرون:

يغفر صاحبا السمو لمسلمي مدينة الكابطي، هجماتهم واعتداءاتهم التي كانت تستهدف حرس الملكين، وتمنح لهم حرية العيش كبقية إخوانهم الذين شملتهم هذه المعاهدة.

المادة الرابعة والعشرون:

يعتبر صاحبا السمو جميع أسرى المسلمين، أو الفارين من الأسر إلى مدينة غرناطة، والبيازين، وأرباضهما، أو إلى أي ناحية تابعة لمدينة غرناطة، أحراراً ولا تصدر العدالة بحقهم أي حكم كان، لكن هذا الامتياز خاص بمسلمي الأندلس، ولا يشمل أسرى الجزر، أو كناريس.

المادة الخامسة والعشرون:

لا يدفع المسلمون لصاحبي السمو أكثر مما كانوا يدفعونه لملوكهم المسلمين من الأتاوات.

المادة السادسة والعشرون:

يسمح لجميع من عبروا العدوة (المغرب) من سكان غرناطة، والأرجاء التابعة لها، والبيازين، وأرباضهما، والبشرات، وغيرها بالعودة خلال ثلاثة أعوام من تاريخ إبرام الاتفاقية، والتمتع بالامتيازات التي تمنحها لهم هذه الاتفاقية.

المادة السابعة والعشرون:

لا يجبر أي مسلم حمل معه بعض الأسرى النصارى إلى العدوة، وجعلهم في قبضة سلطة أخرى، على إرجاع هؤلاء الأسرى، أو إعادة الأجر الذي تقاضاه لقاء تسليمهم.

المادة الثامنة والعشرون:

يحق للملك أبي عبد الله، أو أي من قواده، أو سكان القرى، والأرجاء المجاورة لغرناطة، والبيازين، والبشرات، وغيرها ممن عبروا إلى العدوة (المغرب) ولم تطب لهم الإقامة هناك، أن يعودوا خلال الأعوام الثلاثة، ولهم الحق بأن يتمتعوا بكافة نصوص الاتفاقية المبرمة.

المادة التاسعة والعشرون:

يحق لتجار مدينة غرناطة، والبيازين، وأرباضهما، والبشرات، وغيرها، أن يحملوا سلعهم إلى العدوة، ويعودوا بها آمنين مطمئنين، كما يحق لهم دخول سائر الأرجاء التي في حوزة الملكين الكاثوليكيين، دون أن تترتب عليهم أية أتاوة مترتبة على النصارى.

المادة الثلاثون:

لا يجوز إرغام أية نصرانية تزوجت من أحد المسلمين، واعتنقت الدين الإسلامي على العودة إلى النصرانية، إلا طائعة، وبعد أن تسأل في ذلك أمام جمع من المسلمين والنصارى. وفيما يتعلق بأبناء الروميات، وبناتهن، فلهم نفس الحقوق المنصوص عليها في هذه الفقرة.

المادة الحادية والثلاثون:

إذا سبق لنصراني ذكراً كان أو أنثى، اعتناق الديانة الإسلامية قبل إبرام هذه الاتفاقية، فلا يحق لأحد من النصارى أن يهدده، أو ينال منه بأية صورة، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً.

المادة الثانية والثلاثون:

لا يجوز إرغام مسلم أو مسلمة على اعتناق النصرانية.

المادة الثالثة والثلاثون:

إذا رغبت امرأة مسلمة متزوجة، أو أرملة، أو بكر، في اعتناق النصرانية بدافع العشق، فلا يستجاب لها حتى تسأل وتوعظ وفقاً للشريعة الإسلامية. وإذا حملت معها خفية بعض الحلي أو غيرها من دار والدها أو أقاربها، أو أي شخص آخر، فيجب إعادة هذه الأشياء إلى ذويها، وتعتبر اختلاساً، وتتولى العدالة اتخاذ الإجراءات الصارمة بحقها.

المادة الرابعة والثلاثون:

أن لا يرغم صاحبا السمو، أو أي واحد من عقبهما، حاضراً أو مستقبلاً أباعبد الله الصغير، أو جماعته، أو حاشيته، أو أي أحد من سكان المملكة أو خارجها مسلمين ونصارى ومدجنين، برد ما غنموه أثناء الوقائع التي جرت بينهم، من الثياب، والمواشي، والأنعام، والفضة، والذهب، وغيرها من الأشياء التي وضع المسلمون أيديهم عليها. ولا يحق لأحد أن يطالب بشيء يكتشف أنه كان له، وإذا طالب به فإنه يعرض نفسه لأقسى العقوبات..

المادة الخامسة والثلاثون:

إذا سبق لمسلم أن أهان أسيراً نصرانياً – ذكراً كان أو أنثى – أو جرحه، أو قتله أثناء احتفاظه به، فلا يسأل عن شيء مما كان.

المادة السادسة الثلاثون:

بعد انتهاء السنوات الثلاث المنصوص عليها في الاتفاقية، تدفع ضريبة الأملاك والضياع الأميرية وفقاً لقيمتها الحقيقية، شأن سائر الأملاك والأراضي.

المادة السابعة والثلاثون:

تعامل أملاك الفرسان، والقادة المسلمين، المعاملة المنصوص عليها في البند السابق؛ فلا يدفع عنها أكثر مما يدفع على الأملاك العادية.

المادة الثامنة والثلاثون:

وتشمل هذه الاتفاقية أيضاً اليهود من مواليد مدينة غرناطة، والبيازين، وأرباضهما، والأراضي التابعة لهما، واليهود الذين كانوا من قبل نصارى، ويسمح لهؤلاء اليهود بالعبور إلى العدوة خلال شهر من تاريخه.

المادة التاسعة والثلاثون:

أن يعامل الحكام، والقواد، والقضاة الذين يعينهم صاحبا السمو على مدينة غرناطة، والبيازين، والكور التابعة لهما، الناس بالحسنى، وان يحافظوا على امتيازاتهم الممنوحة لهم في المعاهدة، وإذا أخل أحدهم بذلك، أو ارتكب خطيئة، يصدر صاحبا السمو أوامرهما بمعاقبته على قدر جرمه، وعزله من منصبه، وتولية غيره ممن يحسنون معاملة المسلمين كما نصت عليه الاتفاقية.

المادة الأربعون:

لا يحق لصاحبي السمو، أو أي من أبنائهما، وأحفادهما منذ الآن التعقب على شيء ارتكبه الملك أبو عبد الله الصغير، أو أحد رعاياه إلى حين تسليم الحمراء، أي بعد مرور ستين يوماً من توقيع هذه الاتفاقية.

المادة الحادية والأربعون:

أن لا يولى على جماعة أبي عبد الله الصغير واحد من الفرسان، أو القادة، أو الخاصة الذين كانوا موالين لمولاي الزغل ملك وادي آش، عم أبي عبد الله الصغير الذي كانت بينه وبين أبي عبد الله عداوة قديمة.

المادة الثانية والأربعون:

يتولى النظر في الخصومات التي تقع بين مسلم ونصراني، أو مسلمة ونصرانية مجلس مؤلف من حكمين، أحدهما مسلم والآخر نصراني، تحاشياً للظلم من الأحكام القضائية.

المادة الثالثة والأربعون:

وبالإضافة إلى جميع ما نصت عليه الاتفاقية، يأمر صاحبا السمو بمنح أبي عبد الله الصغير كل الامتيازات المنصوص عليها في هذه الاتفاقية الموثقة بخاتم الأمير (نجل صاحبي السمو) والموقعة من قبل كردينال إسبانيا، والكهان، والأساقفة، ورؤساء الأديرة، والشرفاء، والدوقات والمركيزات والكونتات وأصحاب المراتب الجليلة، وكتاب العدلية في مدينة غرناطة،

اعتباراً من يوم تسليم الحمراء، والبيازين، وأبوابهما، وأبراجهما، وتعتبر جميع محتويات هذه الاتفاقية نافذة وسارية المفعول في الحاضر وفيما بعد.

المادة الرابعة والأربعون:

يصدر صاحبا السمو أوامرهما بالإفراج عن أسرى المسلمين – ذكوراً وإناثاً – من أهالي غرناطة، والبيازين، وأرباضهما، والكور التابعة للمملكة، إفراجاً غير مشروط بنفقة أو فدية أو غيرهما وذلك بغية إرضاء الملك أبي عبد الله الصغير، وأهالي غرناطة، والبيازين وأرباضهما، وضياعهما كافة، ويتم الإفراج عن هؤلاء الأسرى على النحو التالي:

يفرج عن جميع أسرى مدينة غرناطة والبيازين وأرباضهما وضياعهما الموجودين في الأندلس خلال الأشهر الخمسة التي تعقب إبرام المعاهدة، ويفرج عن الأسرى الموجودين في قشتالة خلال الأشهر الثمانية التالية، وبعد انقضاء يومين من تسليم أسرى النصارى لصاحبي السمو، يتسلم المسلمون مائتي أسير مسلم، مئة من الرهائن، والمائة الثانية من غير الرهائن.

المادة الخامسة والأربعون:

يصدر صاحبا السمو أوامرهما، بإخلاء سبيل الدراس الأسير عند غونثالو فرناندث، وعثمان أسير الكونت تنديا، وابن رضوان أسير الكونت فيره، وإعادة ابن الفقيه محي الدين وخمسة أشخاص من خاصة إبراهيم بن السراج الذين فقدوا وعرف مكان وجودهم، وذلك في الوقت الذي يسلم فيه صاحبا السمو أسرى مدينة الحمراء والبيازين المائة، والرهائن المائة.

المادة السادسة والأربعون:

إذا خضعت أية ناحية من نواحي البشرات لسلطة صاحبي السمو، فإنه يتأتى على المسلمين تسليم جميع الأسرى النصارى الموجودين لديهم في مدة أقصاها خمسة عشر يوماً من تاريخ الانضمام، دون أن يؤدي سموهما أي شيء مقابل ذلك التسليم، كما يجب على هذه النواحي، تسليم أية رهينة من النصارى لديهم خلال هذه المدة. ويقوم صاحبا السمو في مقابل ذلك بإعادة جميع أسرى المسلمين المحتجزين لدى الإسبان.

المادة السابعة والأربعون:

يتعهد صاحبا السمو لجميع السفن التي تأتي من العدوة (المغرب) وترسو في موانئ مملكة غرناطة، بحرية التنقل جيئة وذهاباً، وهي آمنة شريطة أن لا تقوم بنقل الأسرى من النصارى، ويصدر صاحبا السمو أوامرهما للنصارى بعدم اعتراض هذه السفن، أو الإضرار بها، أو بأهلها، أو بمصادرة أي شيء منها.

وفي حالة مخالفة إحدى السفن لهذه التعليمات بنقلها بعض الأسرى من النصارى، فإن حقها في الحماية يصبح لاغياً، ويحق لسموهما إرسال مفتش أو مفتشين يتوليان مهمة تفتيش السفن التي تعبر إلى العدوة للتحقق من نفاذ هذه التعليمات.

معاهدة تسليم غرناطة السرية*
المعقودة بين أبي عبد الله الصغير، والملكين
الكاثوليكيين؛ ضون فرديناند وضونيا ايسابيلا

وفي اليوم الذي وقعت فيه معاهدة تسليم غرناطة وهو يوم ٢١ محرم سنة ٨٩٧هـ الموافق ٢٥ تشرين الثاني، وفي المكان نفسه، وهو المعسكر الملكي بمرج غرناطة، أبرمت معاهدة أخرى في غاية من السرية ملحقاً لهذه المعاهدة، وتضمنت الحقوق والواجبات والالتزامات والامتيازات التي أعطيت لأبي عبد الله الصغير ملك غرناطة، وأفراد أسرته وحاشيته. وقد مثل المسلمين – في هذه الاتفاقية – القائد أبو القاسم المليح وكيلاً لأبي عبد الله الصغير ملك غرناطة، وقعها باسمه، ومهرها بخاتمه. وهي تنحصر في ست عشرة مادة على النحو التالي:

١. يتعهد ملك غرناطة، والقادة، والفقهاء، والقضاة، والحجاب، والعلماء، والمفتون، والشيوخ، ووجهاء غرناطة والبيازين وأهاليهما وأرباضهما كافة صغاراً وكباراً، بأن يسلموا إلى صاحبي السمو أو من ينتدبانه – في جو من الوفاق والمسالمة وفي مدة أقصاها ستون يوماً اعتباراً من ٢٥ نوفمبر عام ١٤٩١م – الأماكن التالية: قلاع الحمراء، وحصونها، وأبوابها، وأبراجها، وأية أبواب أخرى في مدينة غرناطة، وكورها، وكذلك جميع الأبواب التي تحددها هذه المعاهدة، وأن يعلنوا عن ولائهم وطاعتهم وإخلاصهم لصاحبي السمو، وأن يؤدوا واجبهم تجاه سادتهم الجدد شأن سائر رعايا البلاد المخلصين. ولضمان سلامة تنفيذ هذه البنود، يقدم ملك غرناطة، وقادته، وجميع الأشخاص المذكورين أعلاه، خمسمائة شخص من أبناء علية القوم، وإخوانهم في المدينة، والبيازين لصاحبي السمو في المعسكر الملكي بمرج غرناطة، وذلك قبل تسليم الحمراء بيوم واحد، مصطحبين معهم الحاجب يوسف بن قماشة، ليكونوا جميعهم رهائن لدى صاحبي السمو، لمدة عشرة أيام يتم خلالها ترميم القلاع، وتزويدها بالمؤن، شريطة أن يعامل الرهائن إلى حين انتهاء هذه الفترة معاملة حسنة. وعند انتهاء الأجل، يرد الرهائن إلى ذويهم. وتسري هذه الاتفاقية

* انظر نص المعاهدة في: حتاملة، الأندلس: ٦٥٣ وما بعدها.

على صاحبي السمو، وابنهما الأمير ضون خوان، وعقبهم، وأن يعامل أبو عبد الله الصغير، وجماعته، وجميع أشراف منطقة غرناطة، والبيازين وأية أماكن أخرى كرعايا وأتباع، لهم نفس الحقوق التي للرعايا الأصليين، وأن تشملهم حماية صاحبي السمو ورعايتهما، وان تترك لهم جميع منازلهم، وأموالهم، وأملاكهم من الآن وإلى أجل غير مسمى، دون أن يلحقها أي أذى، أو يصادر شيء منها. وفي مقدمة ذلك كله، يعامل الجميع باحترام وتقدير، شأن سائر الرعية من الأسبان.

٢. في اليوم الذي يتم فيه تسليم الحمراء والحصون والقلاع، والأبواب التي حددتها الاتفاقية، يقوم صاحبا السمو بإعادة ابن أبي عبد الله الصغير المحجوز لديهما، مع سائر الخدم والحشم الذين لم يكرهوا على التنصر أثناء احتجازهم إلى الملك أبي عبد الله الصغير.

٣. بعد أن ينفذ أبو عبد الله الصغير كل البنود المذكورة في المعاهدة، يتعهد صاحبا السمو بمنح أبي عبد الله الصغير وأولاده وأحفاده وورثته حق الملكية المطلقة على الأماكن التالية:

الأرجاء والكور في برجة	Las Tahas de Berja
دلاية	Dalias
مرشانة	Marchena
بلذوذ	Boloduy
لوتشار	Luchar
اندرش	Andarax
شبيلش	Jubiles
اجيجر	Ugijar
ارجبة	Orgiba
سويهل	Cueihel
بقيرة	Poqueira

على أن تؤدى جميع الضرائب، والأتاوات، والرسوم المستحقة إلى صاحبي السمو.
ويحق لأبي عبد الله الصغير وأولاده وأحفاده وورثته بحكم الملكية المطلقة لهذه المناطق وما يلحق بها من الأرجاء المسكونة وغير المسكونة، تحصيل خراجها، وموروثاتها، وريعها، وعشورها، وحقوقها. كما يحق لأي واحد من هؤلاء أن يتولى القضاء في هذه الأرجاء والكور المذكورة باعتباره سيدها، ولكنه في الوقت نفسه تابع وخاضع لصاحبي السمو. ولا يستطيع أي إنسان السيطرة على أي من هذه المناطق

لأنها تعتبر من الناحية القانونية ملكا شرعياً لأبي عبد الله الصغير، وله حق التصرف بها، وحرية بيعها أو رهنها متى شاء، شريطة أن تكون الأولوية عند البيع أو الرهن لصاحبي السمو. وإذا أرادا شراءها فيتفقان مع أبي عبد الله على الثمن الذي يرضى به. ويستطيع صاحبا السمو الاحتفاظ بقلعة عذرة وأراضيها مع سائر القلاع والأبراج الممتدة على الساحل إذا رغبا بذلك وإذا شاء صاحبا السمو استغلال قلعة عذرة، بالإضافة إلى مياه شاطئ عذرة – إن أمكن ذلك – وتبقى القلعة تابعة لأبي عبد الله الصغير بعد أن يصلحها ويحصنها صاحبا السمو، وفي مراحل الإصلاح والتحصين تكون تابعة لصاحبي السمو، وبذلك لا يطالب صاحبا السمو بالفوائد المستحقة على القلاع، والأبراج الممتدة على ساحل البحر. أما حراستها، وحمايتها فهي من شأن أبي عبد الله الصغير. وأما دخل هذه القلاع، والكور، والأرحاء، وواردتها في مراحل الإصلاح والتقوية والاستغلال، فليس لأبي عبد الله شيء منه باستثناء عائدات تأجيرها. لكن هذه القلاع، والأرحاء، والكور تبقى ملكاً لأبي عبد الله، ولا تصادر منه. وإذا أنعم صاحبا السمو على شخص معين بشيء من هذه الممتلكات التي اقتطعت لأبي عبد الله الصغير، فلا يجوز له بيعها، وإذا ما رأى التخلي عنها، يقوم صاحبا السمو بتعويضه عنها بالطريقة التي ترضيه. أما إذا تركت هذه الأملاك للملك أبي عبد الله الصغير، فيبقى ريعها ودخلها من حق أبي عبد الله كما هو شأنها الآن. وفيما بعد، دون أن يتهددها أي خطر أو حجز، أو اعتراضات أخرى*.

4. يقدم صاحبا السمو إلى الملك أبي عبد الله الصغير هبة قدرها ثلاثون ألف جنيه قشتالي من الذهب، تعادل (١٤) كوينتس و (٥٥٠,٠٠٠) مرافيدي، يبعثان بها إليه عقب تسليم الحمراء، وبقية القلاع في الوقت المحدد لها**.
5. يمنح صاحبا السمو للملك أبي عبد الله الصغير كل ما ورثه عن والدى السلطان أبي الحسن، سواء في غرناطة، أو في البشرات، لتكون ملكاً له ولأولاده وعقبه وورثته.

---

* هكذا وردت في النص.

** مرافيدي Maravedis أو Morabetino عملة إسبانية قديمة، تشير إلى عصر المرابطين، ونفوذهم السائد بالأندلس، فهي دينار الذهب المرابطي الذي أصبح – لصحة وزنه وعياره – النموذج المحتذى في بلاد المغرب والأندلس. وقد تم سكه في مدن مغربية وأندلسية معاً، بيد أن قيمة (المرابطي) صارت تتأرجح، وصفاتها أصبحت تختلف باختلاف العصور، لدرجة أنها في العهود المسيحية المتأخرة بإسبانيا اختصرت وقسمت إلى ما يعرف بالبليون Vellon الذي كان يسك إما من مزيج من الفضة والنحاس معاً، وإما من النحاس وحده.

وتتضمن هذه التركة معاصر للزيت، وأراضي، ومزارع، وحدائق (حواكير). وله الحق في بيعها أو رهنها والتصرف بها كيفما يشاء، كسائر الكور والأرحاء التي سلف ذكرها، باستثناء الأملاك التي كانت بحوزة بني نصر ملوك غرناطة السابقين، فإنها تبقى ملكاً للدولة، ولا يجوز التصرف بها إلا بأمر صاحبي السمو.

٦. يمنح صاحبا السمو لملكات غرناطة، خاصة عائشة والدة أبي عبد الله الصغير، وأخته وزوجته مريمة، وثريا زوجة والده السلطان أبي الحسن علي المعروفة بإيسابيل دي سوليس، كل ما كن يملكنه في غرناطة والبشرات من الحواكير والأراضي والأرحاء والطواحين والحمامات، بحيث تكون ملكاً لهن ولعقبهن إلى الأبد، ولهن الحق في بيعها ورهنها والتصرف بها كما يشأن، مع ما يلحق ذلك من الامتيازات الممنوحة لأبي عبد الله الصغير.

٧. تعفى جميع التركات التي ورثها أبو عبد الله الصغير، والملكات المذكورات، وثريا زوجة مولاي أبي الحسن علي بن نصر، من الضرائب والفوائد اعتباراً من الآن وإلى الأبد.

٨. يعطى للملك المذكور (أبو عبد الله الصغير) وللملكات المذكورات، كل ما كان ملكاً لهم في مطريل، وتعطى للحجة رميمة العقارات التي كانت لها في مطريل لتساوى بالامتيازات الممنوحة سابقاً.

٩. إذا استلمت لصاحبي السمو أية قرى، أو مواقع تابع للملكة قبل تسليم الحمراء، فعلى صاحبي السمو إعادة جميع هذه المواقع للملك أبي عبد الله الصغير بشكل طوعي وسوف تحظى هذه الأماكن بعناية أبي عبد الله الحسنة.

١٠. أن لا يطالب صاحبا السمو، أو أي واحد من سلالتهما، ملك غرناطة أو أياً من أتباعه في أي وقت بتبادل ما غنمه الطرفان – المسلمون والنصارى – من الأموال والعقارات باستثناء ما تنص عليه بعض الاتفاقيات، ومعاهدات التسليم الخاصة المعقودة بين صاحبي السمو وملك غرناطة، بحيث يدفع صاحبا السمو لمالك العقارات ثمناً لها فتنتقل ملكيتها إليهما، ويحظر على أي إنسان – نصرانياً كان أو مسلماً – المطالبة بأحقيته بوضع يده عليها بقليل ولا بكثير. ومن يخالف ذلك تتخذ بحقه أشد العقوبات الصارمة، ويعتبر خارجاً عن القوانين الإسلامية والنصرانية على السواء.

١١. عندما يرغب الملك أبو عبد الله الصغير، والملكات المذكورات آنفاً، وزوجة مولاي أبي الحسن علي والدة أبي عبد الله الصغير، وأولادهم، وأحفادهم، وقادتهم، وأتباعهم، ونساؤهم، وفرسانهم، ورماتهم، وعيالهم، في العبور إلى العدوة (المغرب)

فسوف يجهز صاحبا السمو سفينتين كبيرتين من مدينة جنوة للجواز بهم في الوقت الذي يشاؤون، وبحوزتهم أموالهم وثيابهم وذهبهم وفضتهم وجواهرهم ومواشيهم وأسلحتهم ما عدا ذخائر تلك الأسلحة، دون مقابل من نفقة أو أجر أثناء صعودهم السفن أو نزولهم منها، مع تأمين وصولهم بطمأنينة وأمان وحسن معاملة لأي مكان معروف سواء في المغرب أو الإسكندرية أو تونس أو أوران أو فاس أو مكان يرغبون بالهبوط فيه.

١٢. إذا لم يتمكن الملك المذكور، أو أي شخص من المذكورين أعلاه من بيع عقاراته المشار إليها فله الحق في تفويض من يشاء لاستلام ريعها، وإرساله لخ أينما كان، دونما عائق أو قيد أو غرامة.

١٣. يسمح للملك أبي عبد الله الصغير – متى شاء – أن يرسل بعض أتباعه أو عماله إلى أرض العدوة (المغرب) للاتجار بالسلع مصدرين ومستوردين، دون أن يتوجب عليهم دفع أية نفقات أو ضرائب أو غرامات مالية مقابل هذا الاتجار لا في ذهابهم ومكوثهم هناك، ولا في إيابهم.

١٤. يسمح للملك أبي عبد الله أن يبعث بست دواب محملة بالسلع إلى أية ناحية من النواحي التابعة لصاحبي السمو من أجل مقايضتها بالزاد والمؤونة اللازمة، وتكون هذه الدواب معفاة من جميع الضرائب في الموانئ، والمدن، والقرى، والأماكن التي تجري فيها المقايضة، إعفاء مطلقاً دون قيد أو نفقة.

١٥. عندما يخرج الملك أبو عبد الله الصغير من مدينة غرناطة، تمنح له حرية الإقامة والمسكن في الوقت الذي يشاء، وفي الأراضي التي اقتطعت له حسب الاتفاقية. ويسمح له بالخروج مع من يشاء من حشمه وقادته وعلمائه وقضاته وفرسانه وكل من يرغب بالخروج معه بخيولهم ودوابهم وأسلحتهم وبرفقة زوجاتهم وعبيدهم، ولا يؤخذ منهم سوى الذخائر التي سوف يضع صاحبا السمو عليها أيديهما. ولن يفرض على أي من ذريتهم – في أي وقت – وضع علامة مميزة لهم في ثيابهم، ولهم أن يتمتعوا بسائر الامتيازات المتفق عليه في وثيقة تسليم مدينة غرناطة.

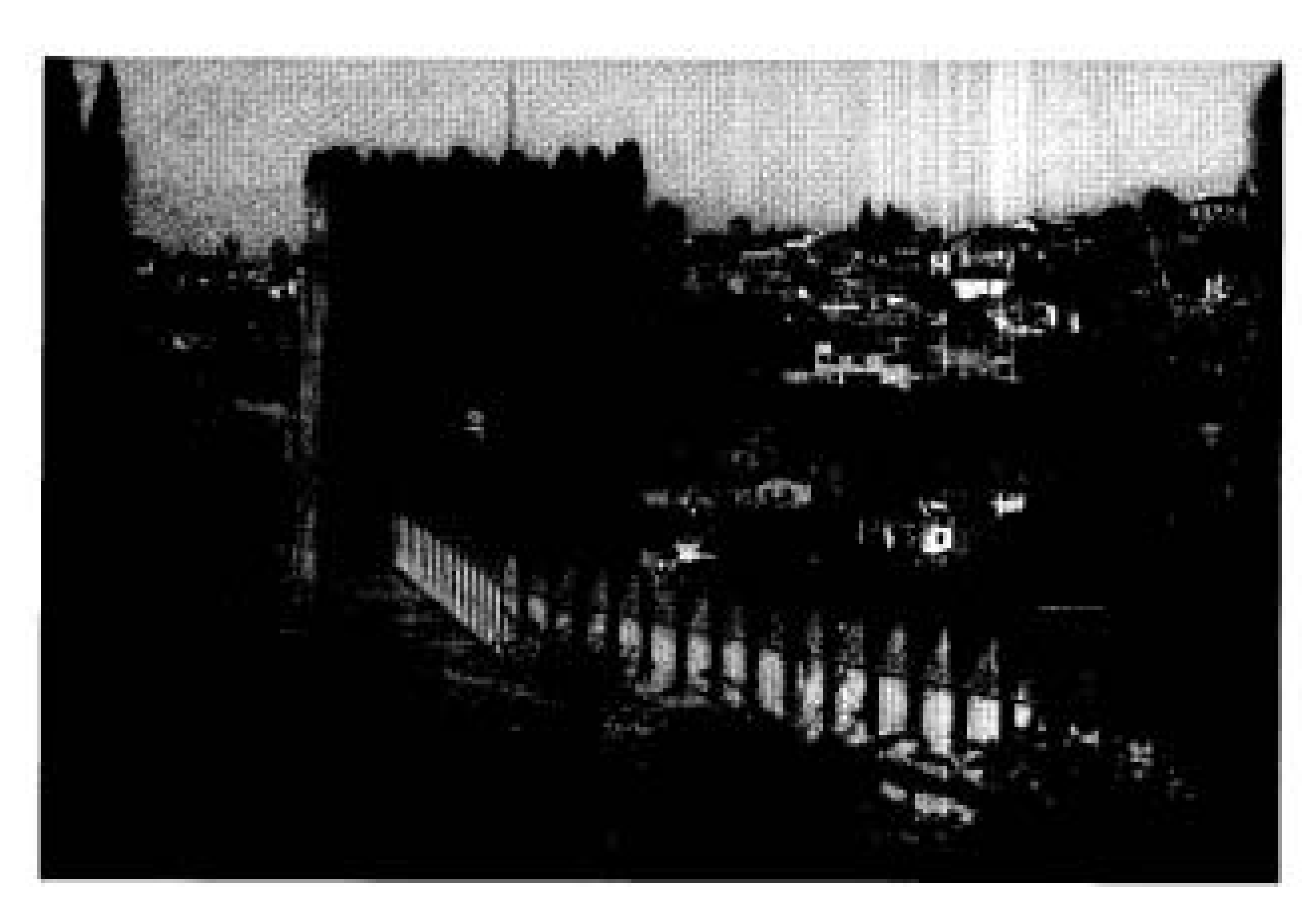
١٦. يأمر صاحبا السمو بإعطاء كل ما ذكر في الاتفاقية للملك أبي عبد الله الصغير والملكات، ووالدته، وزوجته ووالدة مولاي أبي الحسن، وذلك في نفس اليوم الذي يتسلم فيه صاحبا السمو الحمراء، وجميع القلاع التي أدرجت ضمن هذه المعاهدة.

وفي ختام هذه المعاهدة، تعهد الملك فرديناند، وزوجته الملكة إيسابيلا صاحبا ممالك ليون وأرغون وصقلية...الخ أن يأخذا على عاتقهما تنفيذ شروط هذه المعاهدة جميعها، بحرفيتها، دون أي تعديل من زيادة أو نقصان مهما كانت الأسباب، وأن تبقى على حالها دون تغيير أي حرف أو إبداله إلى الأبد. ولا يكون بمقدور أحد ممن يخلف الملكين أو يخلف أبناؤهما أو حفدتهما نقض أي بند من بنودها إلى ما شاء الله.

وصدرت الأوامر بتعميم مضمون هذه المعاهدة على الأمراء والوزراء والقادة والرهبان والرعية والأحفاد. وأصدر مرسوم يهدد كل من يجرؤ على المس بما تضمنته هذه المعاهدة.

وقد ذيل هذا التوكيد بتوقيع الملكين، وتوقيع نجلهما الأمير وحشد كبير من الأمراء ورجالات الدولة وأشرافها وأحبارها.

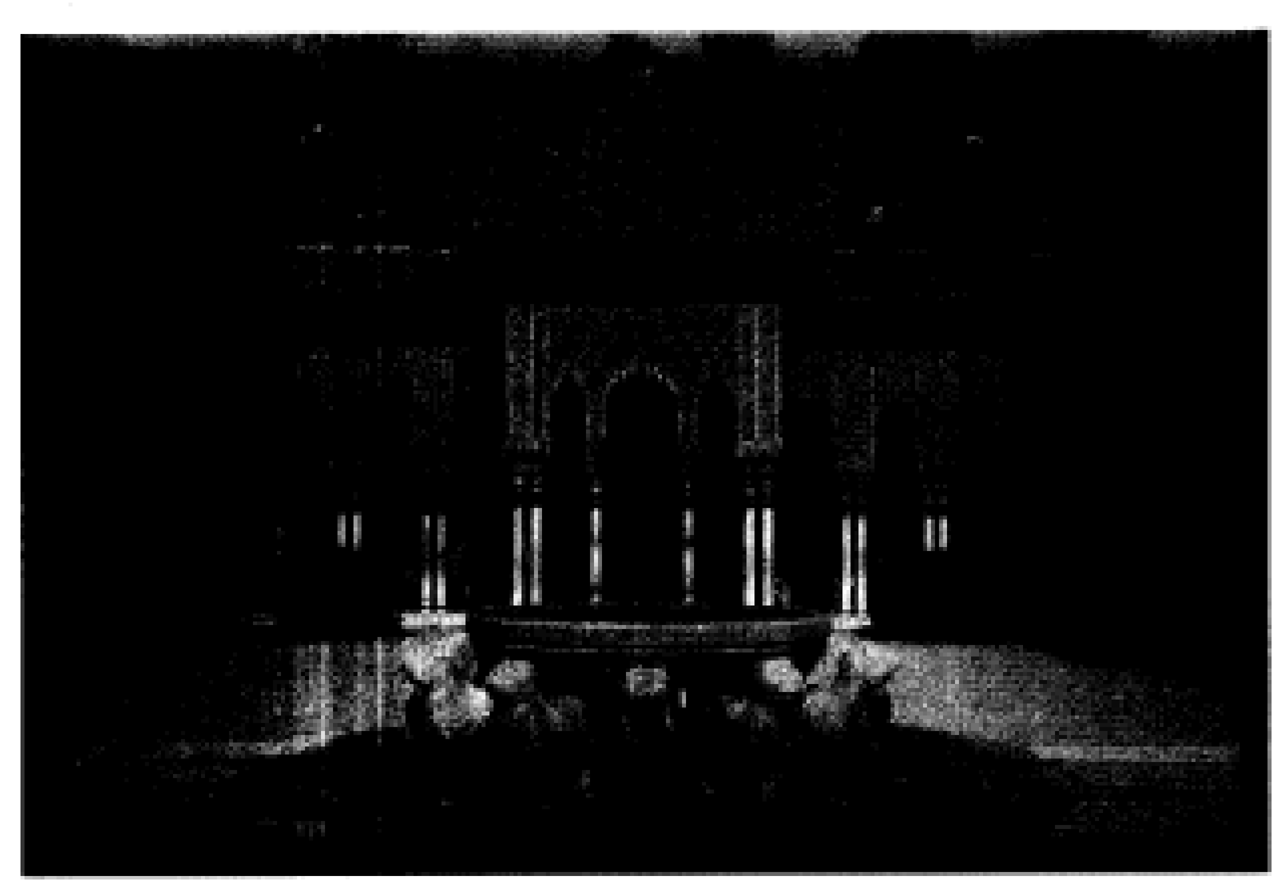
وأدى الملك فرديناند، والملكة إيسابيلا وسائر من حرروا الشروط، القسم بدينهم وأعراضهم أن يصونوا المعاهدة إلى الأبد، وعلى الصورة التي (انتهت) إليها، وحررها فرناندو دي زافرا.



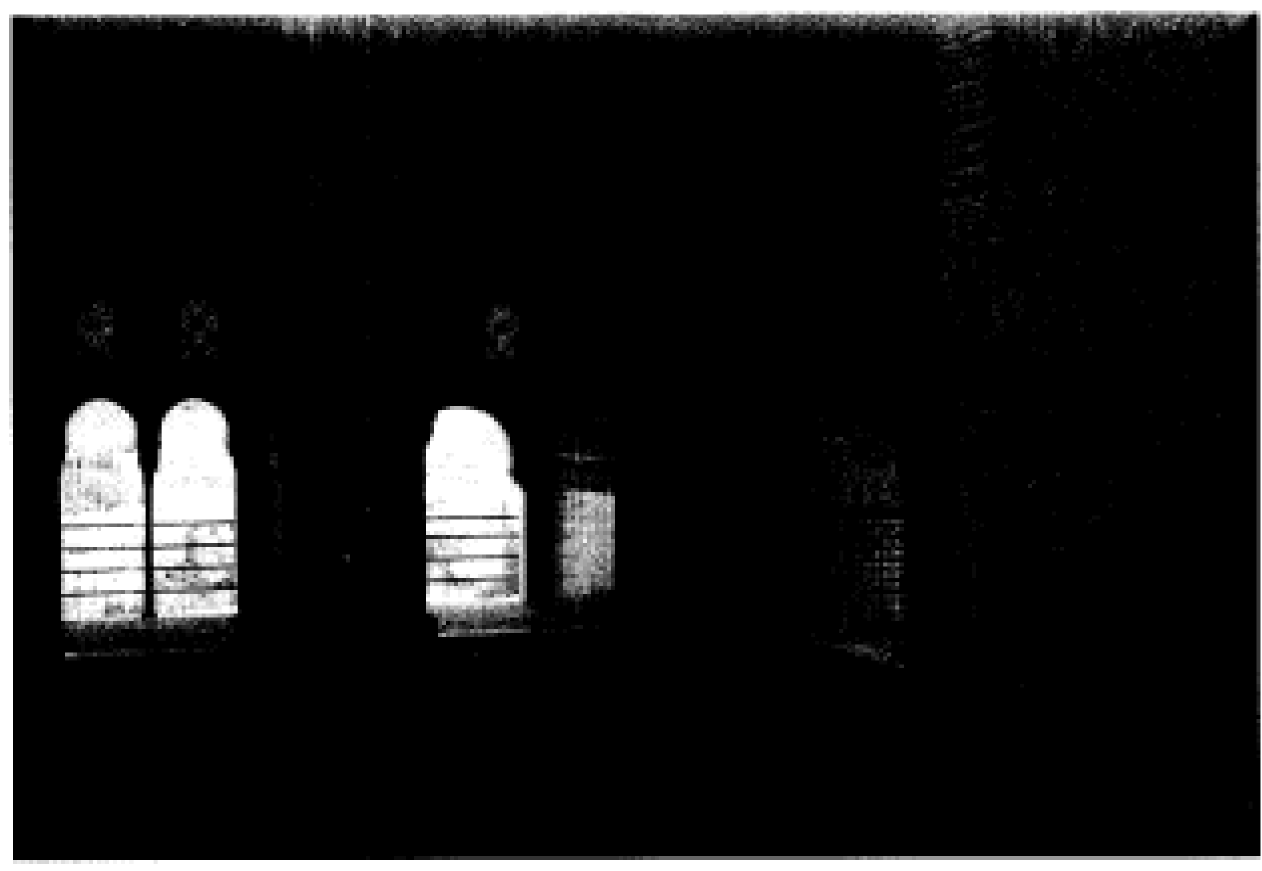
غـــرناطة (الحـــمـــراء)



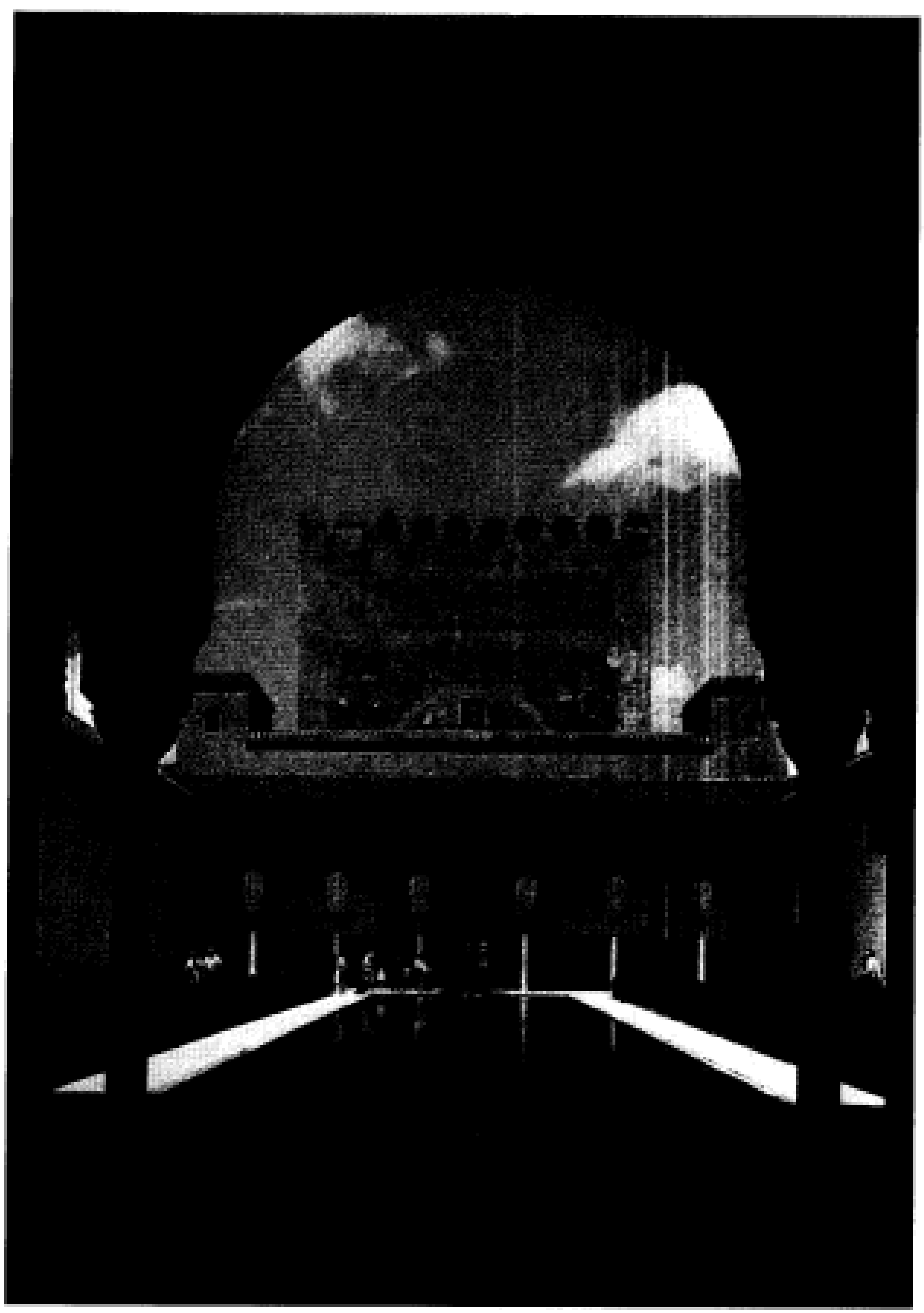
غـــرناطة (الحـــمـــراء)



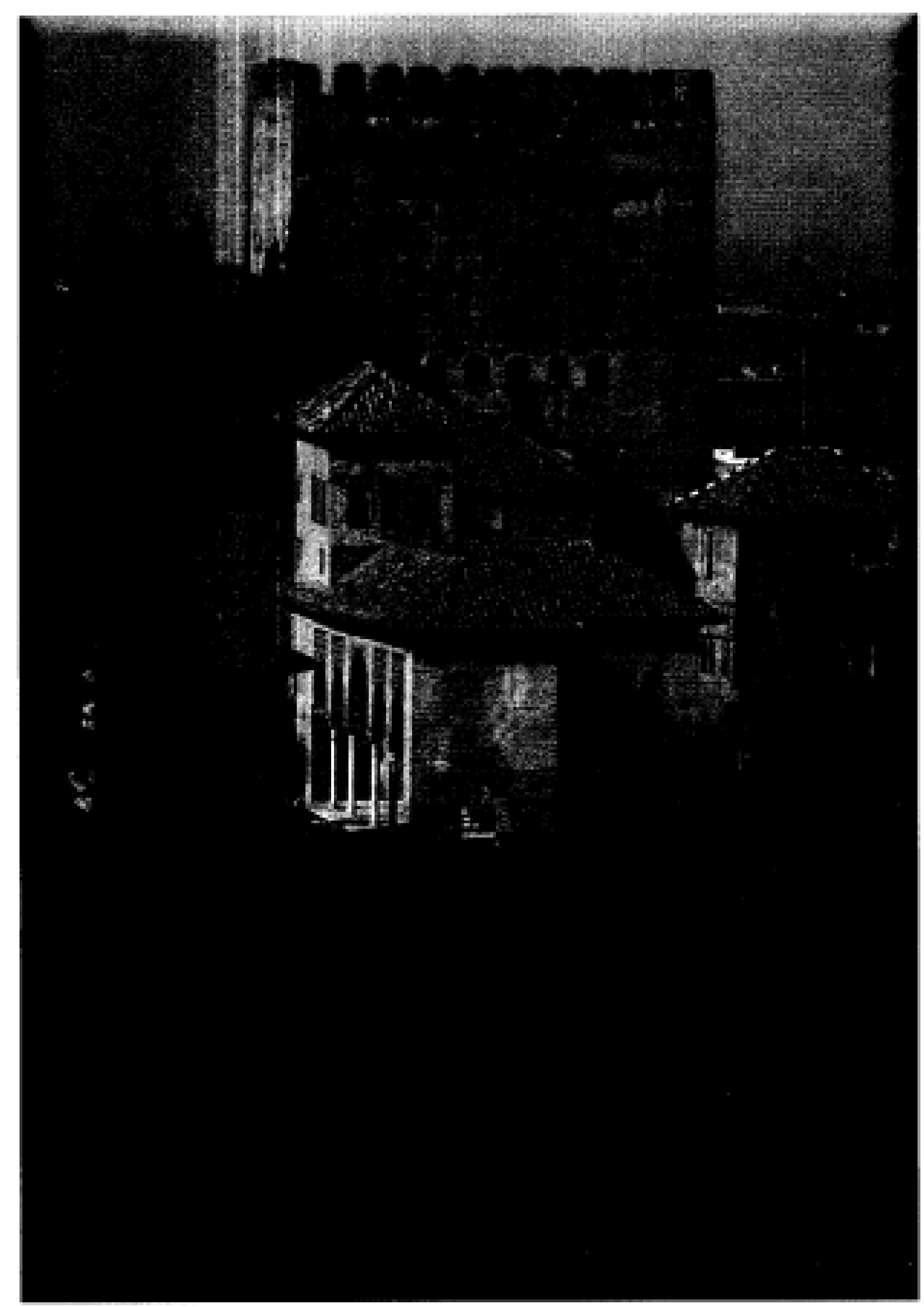
غـــرناطة (الحـــمـــراء)



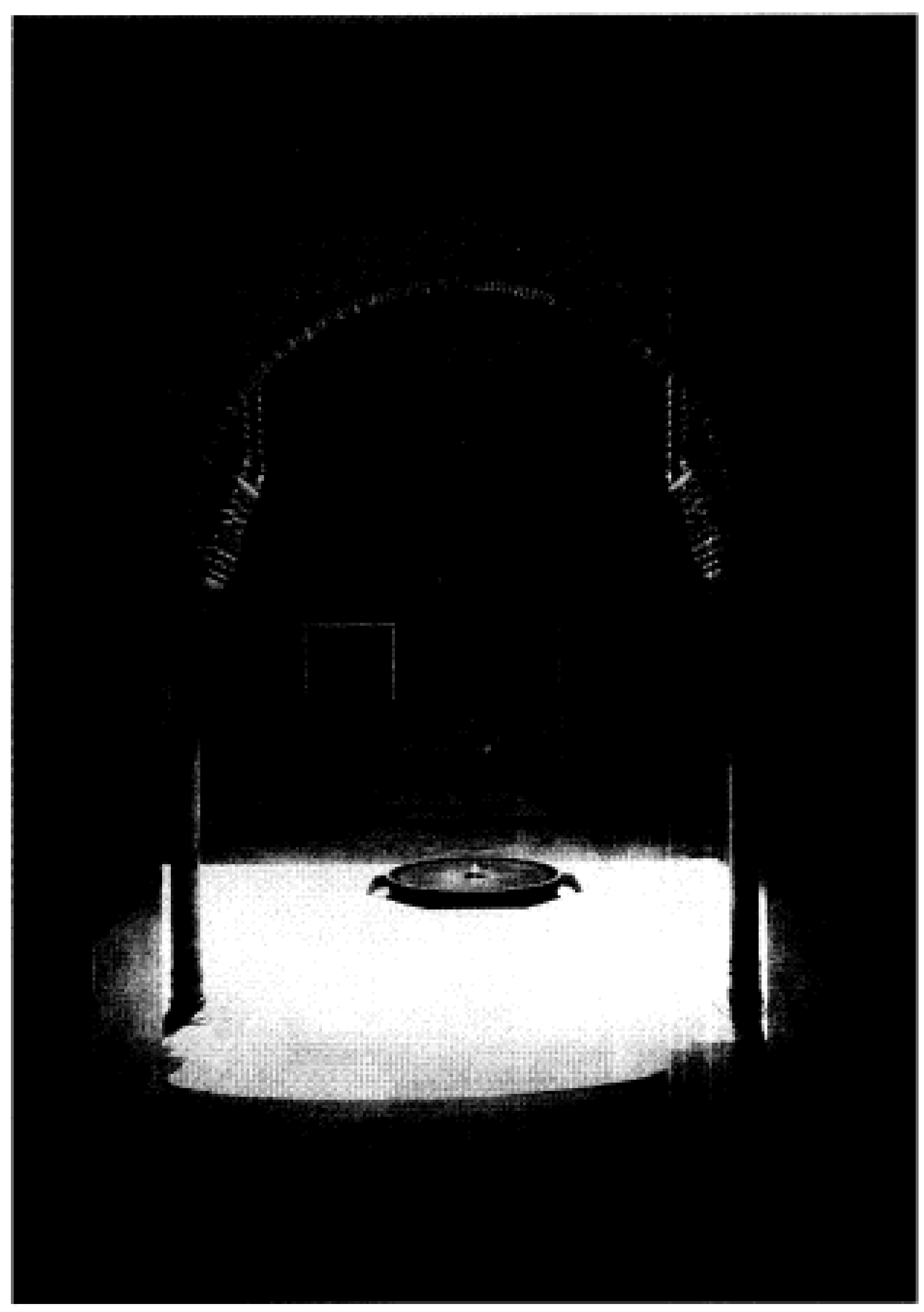
غـــرناطة (الحـــمـــراء)



غـــرناطة (الحـــمـــراء)



غـــرناطة (الحـــمـــراء)



غـــرناطة (الحـــمـــراء)



غـــرناطة (الحـــمـــراء)



خـــــارطة العـــــالم

